مُلتقَى العُلماءِ
لنصرةِ
خاتمِ الأنبياءِ

صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي

أبعاد التجنّي و براهين التفنيد

دراسة في منظور النسق الثقافي والسيمياء والمتخيَّل الجمعي

د. مصطفى عطية جمعة

إصدارات منصة أريد

صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي

د. مصطفى عطية جمعة

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

1443 هـ – 2021 م

الطبعة الأولى

اسم الكتاب: صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي

اسم المؤلف: د. مصطفى عطية جمعة

الطبعة الأولى : 1443هـ - 2021 م

مقاس الكتاب : 6″ * 9″

عدد الصفحات : 68

حقوق النشر : منصة أريد

ISBN 978-1-365-28800-5

ماليزيا – كوالالمبور

arid.my | info@arid.my

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي:

أبعاد التجنّي وبراهين التفنيد

دراسة في منظور النسق الثقافي والسيمياء والمتخيَّل الجمعي

د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ م. الأدب العربي والنقد والإسلاميات

mostafaateia@gmail.com

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

قال الله جلّ وعلا:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ
بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) ﴾

(سورة الأنبياء: 107 - 109)

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

فهرس الموضوعات

مقدمة 5

الفصل الأول: صورة الرسول (ﷺ) في الموروث الغربي 7

الأنساق والعلامات والمتخيل 7

تأصيل تاريخي حول الإسلام والرسول والغرب: 7

صورة الرسول(ﷺ) المبكرة في ضوء النسق الثقافي الغربي: 10

صورة الرسول في الغرب: الأبعاد والتفاصيل والمصادر: 16

صورة الرسول بين المتخيل الجمعي الغربي وفوبيا العقول: 20

صورة الرسول في الاستشراق المبكر: 26

الاستشراق المتأخر وإعادة إنتاج صورة الرسول: 32

خاتمة الفصل: يمكن أن نصل في ختام هذا الفصل إلى جملة نتائج: 37

الفصل الثاني: تصحيح صورة الرسول (ﷺ) 38

تفنيد الأسس وهدم القناعات. 38

صورة الرسول وإشكالية التحيز: 38

تفنيد الشبهات وتفكيكها: 44

الشبهة الأولى: إنكار نبوة محمد، ونفي أي طابع إلهي لرسالته: 45

الشبهة الثانية: نفي الوحي القرآني عن الرسول: 47

الشبهة الثالثة: تلقي الرسول(ﷺ) الإسلام من رهبان النصارى واليهود: 50

الشبهة الرابعة: الرسول بوصفه زعيما سياسيا محنّكا وداهية: 52

الشبهة الخامسة: المنهجيات العلمية المزعومة: 55

خاتمة الفصل: يمكن أن نصل في ختام هذا الفصل إلى جملة نتائج: 61

المصادر والمراجع 62

مقدمة

المستهدف في هذا الكتاب عرض نظرة كلية عن صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي، والتي تعرضت لتشويه كبير، على امتداد قرون، وإلى يومنا، ولكن لا نكتفي بتلك الصورة فقط، وإنما سنسعى إلى تقديم رؤية مثلثة، تشمل الصورة بأبعادها الثلاثة: طبيعة التجني على الرسول (ﷺ)، وتفنيد هذا التجني والرد عليه كي نقدّم تصورا مغايرا من الآخر وهم يشهدون بسمو الرسول والرسالة، مدركين أن محمدا (ﷺ) نبي مرسل، وليس حكيما أو مصلحا اجتماعيا في أحسن الأقوال عند الغربيين، أو هو مدعٍ أخذ رسالته من التوراة والإنجيل، في أسوأ أقوالهم على الإطلاق؛ على نحو ما ذكر الكثير من المستشرقين، وكلا النظرتين أساسها التشويه، والجهل، ولا عزاء للمنهجية العلمية، ولا النظرة الموضوعية، وأمانة الكلمة.

نقول هذا من أجل النأي قليلا عن الروح العدائية المستحكمة، والتي أصبحت قضية قديمة جديدة ومتجددة والتي نشهدها في الهجوم الوقح على رسولنا (ﷺ)، والذي كلما خبا، عاد واشتعل، وكلما سكن، وجد من يفجره، وكأنه سيناريو مرسوم، لا يعرف استقرارا، فهناك قوى تحرّكه، تستند إلى إرث مشوه في المخيلة الأوروبية، مأخوذ من كتابات المستشرقين المغلوطة عن عمد لا يمكن أن يكون الجهل سببا له، وإنما الادعاءات الملفقة، والقلوب المغلقة، والعقول المظلمة، التي لا تريد أن تتعرف على حقيقة الرسول (ﷺ)، ولا جوهر الإسلام، ويبدو أنها تخشى الاطلاع عليها، ربما لأنها تعلم أن الحق أبلج، فإذا انبلج أمام عقولهم، فحتما سيسيطر على قلوبهم.

فالصورة الشائعة عندهم عن الرسول لا تستند إلى حقائق، وإنما إلى أوهام، وليتهم فهموا الرسول ودعوته وهديه كما نفهمه نحن المسلمين، فشتان بين تقديم صورة هي الحقيقة الواقعية القائمة، وبين أن تقدم نثيرات لا رابط بينها إلا روافد الكراهية المستحكمة، عن جهل لا عن علم، وعن تحيز وتعصب لا عن موضوعية وأمانة.

فلا حلّ إلا بنشر الحقائق عن النبي (ﷺ)، وإلا سنظل ندور في دائرة مفرغة؛ هم يتطاولون عن جهل، ونحن نذود عن حب، وتغيب مساحات الحوار المشترك، التي إن وجِدت لخبت نيران الحرب، وهي بلاشك موجودة، فهناك كثير من الغربيين أنصفوا الإسلام ورسوله، ولكن أصواتهم مغيّبةٌ أمام العنصرية الغربية الطافحة بالعداء، خاصة مع صعود النزعات اليمينية المتطرفة، وظاهرة الإسلاموفوبيا.

وفي سبيل هذه الغاية، من المهم أن نقدم رؤية؛ نجتهد أن تكون شاملة، عن المنظور الغربي للرسول محمد (ﷺ)، حيث سنعرض صورة الرسول محمد (ﷺ) في العقل الغربي، معتمدين في ذلك على عدد من

الدراسات والبحوث التي تمت في هذا الشأن، والتي اجتهدت في تبيان صورة الرسول في الوجدان الغربي، وستكون إضافتنا العلمية أننا سنحلل هذه الصورة في ضوء الأنساق الثقافية المترسخة والمتوارثة في الغرب، وكيف نَمت وازدهرت في المتخيل الجماعي، وصارت حقائق ومسلمات في المتخيل الفردي، بل إن الرسول (ﷺ) صار علامة تستدعي تصورات بعينها متى تردد اسمه.

ثم نعمد إلى تفنيد الرؤية الغربية الاستشراقية، متوقفين عند المقولات المركزية التي صاغتها، واعتمدتها في الهجوم على الرسول، ومن ثم يكون الرد عليها وتفنيدها وبذلك تكتمل أبعاد الصورة في ذهن القارئ، حيث بدأنا بادعاءات التجي، ثم سبل الرد عليها، والذي لن يكون ردا مقتصرا على المنقول وإنما العقل والنقل والتحليل.

ونرى أن أفضل منهجية يمكن أن تعيننا في تحقيق هذا الهدف، هي نظرية الأنساق في تقاطعها مع منهجية علم السيمياء (العلامات) ومفهوم المتخيل الجمعي، والتي سنقوم بالتعريف بها، وكيف يمكن توظيفها بوصفها استراتيجية قراءة وتحليل، نستهدف بها قراءة الأنساق الثقافية والاجتماعية التي وقفت خلف تكوين الصورة عن الرسول محمد، ذلك أن أحكام الفرد تخضع دائما لنسق ثقافي يؤمن به، وينظر به إلى الأفكار، ويقيّم من خلاله الشخصيات، والغريب أن النسق الثقافي الغربي في نظرته إلى الإسلام لم يتغير قديمه عن جديده، إلا قليلا، وهذا ما سعينا إلى تبيانه في الفصل الأول، حيث بدأنا بجذور صورة الرسول مبحرين في أعماق التاريخ –على قدر ما اتسع به المقام– لنقف على أبعاد الصورة منذ الصدام المبكر، عندما غزت جيوش المسلمين ممالك بيزنطة المسيحية شرقا وغربا، ثم الصورة في القرون الوسطى، والاستشراق المبكر ثم الاستشراق المتأخر والحديث، ضمن دائرة أكبر تتعلق بالأبعاد السياسية والاستعمارية. أما الفصل الثاني، فسيكون منصبا على تفنيد الشبهات المركزية، دون الإغراق في الجزئيات الفرعية، على قناعة منا أن مناقشة الجذور، أساس في فهم الفروع.

أسأل الله تعالى المثوبة والأجر، وما جهدنا إلا مجرد ثمرة، من أشجار باسقة مزهرة.

الفصل الأول

صورة الرسول (ﷺ) في الموروث الغربي

الأنساق والعلامات والمتخيل

تأصيل تاريخي حول الإسلام والرسول والغرب:

إن المنظور الغربي العدائي الذي نراه متجليا حتى عصرنا نحو إلى الرسول محمد (ﷺ)؛ ليس وليد الحقبة الاستعمارية، وإنما يمتد إلى حقب تاريخية مبكرة، منذ ظهور الإسلام بوصفه ديانة جديدة، وتشكيله تحديًا أمام العقائد السائدة في العالم القديم، فمن الطبيعي أن يكون الإسلام ورسوله حاضرينِ في نقاشات أتباع الديانات السماوية في العالم، خاصة في شمال إفريقيا والشام وأوروبا، بحكم وجود الدولة البيزنطية، وهويتها المسيحية، وكونها راعية للمقدسات المسيحية في القدس، ووجود أيضا أقليات يهودية. ومن هنا، فإن الحضور الإسلامي لم يكن على المستوى العسكري فقط، من خلال الفتوحات الإسلامية، وإنما كان حضورا ثقافيًا ودينيًا، سبق الفتوحات، وتزامن معها، وظل مستمرًا بعد انتهاء الفتوحات الكبرى، وتقلص رقعة بيزنطة وخسارتها البلاد التي سيطرت عليها في الشام وشمال إفريقيا، وانحصارها آسيا الصغرى. بجانب امتداد الفتوحات إلى بلاد المغرب العربي وشبه جزيرة إيبريا (الأندلس)، ناهيك عن سيطرة البحرية الإسلامية على البحر المتوسط، ومن ثم قيام علاقات تجارية مع بيزنطة، وغيرها من أقاليم أوروبا. ومن هنا، يتوجب طرح أسئلة من شاكلة: كيف نظر الآخر غير المسلم إلى الإسلام بوصفه دينا وعقيدة وشريعة ودولة صاعدة، وجيوشا متتابعة؟ فهو سؤال فكري في الأساس، يحفر في الحقب الزمنية القديمة، لننظر كيف نشأ المنظور الآخر للإسلام عامة، وللرسول محمد (ﷺ) بشكل خاص، فلن نفهم صورة الرسول الكائنة في الغرب، إلا بتتبع جذورها التاريخية.

وهو ما يدفعنا إلى إعمال مفهوم "تاريخ الأفكار" الذي يوضحه ميشال فوكو بأنه "يتناول البدايات والنهايات، ويهتم بوصف ألوان الاتصال المبهمة، وألوان العودة، وبإعادة إنشاء التطورات الخطية المتعاقبة للتاريخ، ويتتبع، انطلاقا من ذلك المبادلات التي تتم بين الميادين المعرفية، وهجرة الأفكار بين بعضها

البعض..، تاريخ الأفكار يريد تحليل الولادات الصماء، وألوان التلاقي البعيدة في القدم، وألوان الدوام والاستمرارية الثاوية (الكائنة) خلف التغيرات الظاهرة"([1]).

فتاريخ الأفكار يعتني بتاريخ الفكرة التي تتماثل أمامنا الآن، ساعيا إلى التنقيب عن جذورها، ناظرًا من أين نبتت، وكيف تطورت، وكيف هي مآلاتها وثمراتها. ويبحث أيضا في الترابطات المصاحبة للفكرة، اجتماعيا وثقافيا وتاريخيا.

وإذا طبقنا هذا المفهوم على صورة الرسول (ﷺ) في الكتابات الأوروبية، سنجد أنها بدأت في حقبة مبكرة للغاية، في سياقات تاريخية وسياسية ودينية مختلفة، خاصة بعدما ظهر الإسلام بوصفه ديانة جديدة، برسول مبعوث من الله سبحانه وتعالى، استطاع نشر الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية، وراسل الملوك والأمراء والقادة في عصره، يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم للدخول فيه.

فمن المنطقي أن يتساءل المخاطَبين، وغيرهم عن كينونة هذا الرسول، وشخصيته، وطبيعة دعوته، والعقيدة التي يدعو لها، خاصة عندما بدأت جيوش المسلمين في اجتياز حدود الامبراطورية البيزنطية، وتفكيك الامبراطورية الفارسية، فلم يكن الأمر وقتها مقتصرا على جيوش متقاتلة، وبلدان تتهاوى، تحت سنابك خيول المسلمين، وإنما كانت هناك معركة دينية وفكرية، بدأت تدور رحاها، فالفاتحون المسلمون ليسوا مستعمرينَ بمعنى أن دوافعهم هي التوسع لأسباب اقتصادية ودنيوية، وإن كان هذا الرأي تبناه عدد من المستشرقين وللأسف تابعهم عدد من العلمانيين العرب، ومن أبرز المستشرقين: كارل بيكر وليون، وليون كايتاني، اللذان ركّزا على أن الفتوحات تعود إلى الجدب الذي أصاب جزيرة العرب، والفقر الشديد الذي عاشت فيها قبائلها، مما دفعهم إلى الهجرة قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أوجد فيهم حماسة للمقاتلة، وتنظيما في الحركة، تحت لواء دولة إسلامية صاعدة، من أجل تحقيق أهدافهم الاقتصادية. ولكنهما يقران أن العرب لم يغصبوا أحدا على الإسلام، وإنما اكتفوا بالجزية ممن ظل على ديانته([2]). فهذا الرأي يحاول قراءة الفتوحات في منظور التوسع الاستعماري النفعي، وهو منظور مردود عليه، لأن العرب سعوا إلى نشر الدين الجديد، دون قهر أو تسلط على شعوب البلدان المفتوحة، فقد تركوا القبائل العربية المهاجرة تستقر في البلدان المفتوحة، لتبدأ حركة تفاعل ديني ثقافي وفكري ولغوي، أسفرت في النهاية عن انتشار الإسلام والعربية.

وقد سقطت هذه النظرية، عندما ناقشها المستشرق والرحالة آلو موزيل، موضحا أن دعاوى كايتاني

---

[1]) حفريات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1987، ص127، 128

[2]) الفتوحات الإسلامية، د. صالح أحمد العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص48.

تفتقد للمعلومات المؤكدة، وبالتالي لا يمكن التسليم بصحة استنباطاته؛ فالجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده؛ لم تكن في حالة من الإجداب والفقر على نحو ما صور كايتاني، فعلى الرغم من هيمنة دولتي فارس والروم في العالم القديم وقتها؛ إلا أن العرب ظلوا محتفظين بنشاطهم في التجارة العالمية، ويدرّ عليهم ربحا وفيرا، كما تكفلت الواحات والقرى الخصبة بتموين احتياجات القبائل الرعوية من المواد الغذائية مثل الطائف ويثرب واليمن والبحرين وعمان، كما وُجدت المراعي الواسعة حول الآبار الكثيرة، وإنما كانت تفتقد إلى الحكومة القوية([3])، بل إن الأمر كان على النقيض، فتلك البقاع الرعوية والخصيبة، بالقبائل القاطنة فيها، كانت خير معين لإمداد الجيوش الإسلامية بما تحتاج إليه من جنود، ومن مؤن وصناعات بيئية متنوعة، فكانت خير ظهير وداعم للفتوحات([4])، والتي جاءت بسرعة كبيرة.

وبذلك تسقط الفرضية الخاصة بأن الدافع هو اقتصادي بحت، لقبائل عانت من شظف العيش والفقر الشديد، والتي تستند حقيقة إلى الفلسفة الماركسية، في نظرتها المادية للتاريخ، والتي تقرأ التاريخ وفق الأنساق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، عبر استنادها إلى مفهومين أساسيين: البناء التحتي Infrastructure، ويعنى بالعوامل والظروف الاقتصادية المتحكمة في المجتمع، والبناء الفوقي Superstructure وهو الأبنية السياسية والقانونية الحاكمة للمجتمع([5])، فهي رؤية إسقاطية شبه جامدة، لا تفهم حركة الفتوحات الإسلامية الناتجة عن قوة روحية هائلة، أحدثها الإسلام في نفوس العرب، وجعلهم جنودا فاتحين، يحملون رسالة الإسلام، ويقدمون أرواحهم فداء لها. إن أزمة هذه الرؤية، أنها تخضع الإسلام – وكذلك أثر الأديان– لمنظور دنيوي مادي نفعي، وهو ما يجعل رؤيتها قاصرة، عاجزة عن تقديم تفسير دقيق للفتوحات، التي لا يمكن أن تقاس بغيرها، فقد تلاشت الامبراطورية الضخمة التي أنشأها الإسكندر المقدوني، بمجرد وفاته، كما تهاوت الامبراطوريات العظمى مثل دولتي الروم وفارس والصين وغيرها، ولكن الإسلام انتشر وتعمق وتغلغل في البلدان المفتوحة، وتمدد سريعا في أفريقيا وآسيا، من خلال التواصل الإنساني والحضاري والثقافي والتجاري. وبعبارة أخرى: شتان ما بين الفتوحات الإسلامية التي رفعت رايات الدين والعدالة والإيمان، وبين التوسعات الاستعمارية التي رأيناها قديما وحديثا، وهذا ما لم يدركه أو تغافل عنه معظم المستشرقين الغربيين، فراحوا يقيسون فتوحات إسلامية بنظرات مادية دنيوية.

---

[3]) المرجع السابق، ص 50، 51.

[4]) انظر: دوافع الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي، د. عدي سالم الجبوري، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2011، ص108.

[5]) المعرفة التاريخية للغرب: مقاربات علمية وفلسفية وأدبية، قيس ماضي فِرّو، المركز العربي للسياسيات، الدوحة، قطر، ط1، 2013، ص182.

ذلك، ما يقودنا إلى تبنّي المنظور الثاني، الذي يرى أن الدافع الديني كان حاضرا ومحرِّكا، وكما يقول صالح العلي، فإن قبائل العرب مزقتها الحروب في الجاهلية، فلما جاءها الرسول (ﷺ)، وتشربوا رسالة الإسلام وقيمه وفضائله، حيث وضع للحروب غاية سامية، فلم تعد غزوات للمغانم المادية، بل أصبحت فتوحات لإعلاء كلمة الإسلام والدين، مع تعميق مفهوم الجهاد بوصفه سنام الإسلام، والشهادة بوصفها مفتاحا للفردوس الأعلى. أيضا، ولم تكن جيوش الفتوحات من الصحابة وحدهم، وإنما كانت من القبائل العربية حديثة العهد بالإسلام، بل إن عمر بن الخطاب سمح للمرتدين بالجهاد، وتلك نقطة استند عليها بعض المدّعين من المستشرقين، بأن مثل هؤلاء خرجوا للجهاد طمعا في المغانم، غير آبهين بنشر الإسلام. ونرد عليهم بأن هناك سيكولوجية جمعية، وروح جماعية تمثلت في الإيمان، وإعلاء كلمة الجهاد، وذلك ديدن جيوش المسلمين، مما ألهب عواطف المقاتلين وملأهم بالحماسة والشجاعة([6])، فلم تكن جيوش المسلمين إلا مدرسة تربوية، تعد روحيا وعسكريا حديثي العهد بالإسلام، وتصهرهم في بوتقتها الإيمانية، لذا، لم نجد صراعات على الغنائم من قبل الجنود، ولا تمردا على قادة الجيوش، فكل شيء يتم وفق هدي الإسلام، حيث الغنائم تُوزَّع بعدالة، والمساواة قيمة عليا بين الجنود، فلا يترفع قائد على جنوده، ولا يتنابزون ويتفاخرون بأحساب وأنساب قبلية، فهم مجاهدون في سبيل الله، فكانت أخلاقهم وحسن سلوكهم خير معين في التعريف بالإسلام.

ذلك هو الإطار العام الذي بدأت الشعوب الأخرى في التعرف على الإسلام، فقد تطايرت أنباء عن الرسول ودعوته السامية إلى هذه الشعوب، وقد رأيناه مبكرا في هجرة الصحابة إلى الحبشة، فأهلها من أهل الكتاب؛ وملِكها النجاشي ذو رحمة وعدالة وإيمان، فاحتضن المسلمين المهاجرين في بلاده، وحمى إيمانهم من مكر مشركي قريش. كذلك رأينا تعرّف الشعوب الأخرى على الإسلام من خلال الرسائل التي بعث بها الرسول(ﷺ) إلى الملوك والحكام في الممالك والامبراطوريات حوله، مثل رسائله (ﷺ) إلى عظيم القبط في مصر، وكسرى بفارس، وهرقل قيصر الروم، ثم شاهدت شعوب هذه الدول قدوم جيوش المسلمين فاتحين، ومن ثم بدأت حركة الدعوة إلى الإسلام حية نشطة، تنتشر لدى شعوب العالم آنذاك.

صورة الرسول(ﷺ) المبكرة في ضوء النسق الثقافي الغربي:

تعددت وتنوعت الكتابات الغربية التي تناولت الرسول(ﷺ)، والتي سطّرها كثير من المستشرقين، ورجال الكنيسة والبلاط والمؤرخين، وقد بدأت منذ حقبة تاريخية مبكرة وتطورت لتظهر بوضوح في كثير من الكتب

[6]) الفتوحات الإسلامية، مرجع سابق، ص52، 53.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

في القرون الوسطى، والتي دوّنت القناعات المتوارثة عن الإسلام والرسول، متوجهة بخطابها إلى الشعوب ورعايا الكنائس الأوروبية، ساعية إلى إيجاد أرضية فكرية بين المؤمنين بالمسيحية لاتخاذ موقف واحد من الإسلام، بغض النظر عن الاختلافات المذهبية المسيحية، وذلك بتقديم صورة أقل ما توصف به أنها جمعت الافتراء مع البشاعة، والتضليل مع التشويه، مما يستلزم التوقف عند هذه الصورة، وتقديم أبرز ملامحها؛ فلن نستطيع فهم الصورة الأخرى التي أنصفت الرسول من الكتّاب الغربيين– والتي نراها استثناء من القاعدة– إلا بفهم القناعات الفكرية التي سادت أوروبا، على مستوى العامة والكهنة والمؤرخين والفلاسفة، على الرغم من صراعاتهم المذهبية والسياسية والعسكرية، إلا أنهم متوحدون في عدائهم ضد الرسول والإسلام، بمقولات وادعاءات يمكن الجزم بأنها تمتاح من معين واحد، فإذا ذهبتَ للبحث عن هذا المعين أو بالأدق المصادر التي استندت إليها في رسم هذه الصورة، تكتشف أنها سراب، فهي ليست بمصادر عربية وإسلامية، وإنما هي أشبه بالأساطير الشفاهية، التي تناقلتها الألسن على مر العصور، وأضافت لها كلَّ قبيح مع تداولها على المستوى الشعبي، ومن ثم تم تدوينها لاحقا، فإذا أردنا البحث عن علاقة الصورة المرسومة بالأصل والحقيقة، لن تجد إلا شذرات مكذوبة، لا تمثّل الحقيقة بقدر ما تحمل خيالات مشوهة.

ولذا، نرى أن النهج الأنسب لتقديم قراءة شاملة عن صورة الرسول في الكتابات الغربية عامة؛ هي قراءتها في ضوء النسق الثقافي الذي أُنتِجتْ فيه، فلا يمكن فهم مثل هذا الكتابات إلا بالعودة إلى المحيط الذي خرجت منه، وتوجهت بخطابها إليه.

يعرّف جميل حمداوي النسق بأنه: "التجميع أو دوران مجموعة من الأفكار والأطروحات والمحاور حول مبدأ مركزي ما. أو هو عبارة عن مجموعة من الأجزاء والمقاطع المنسجمة والمترابطة فيما بينها، والتي تدور حول فكرة أو أطروحة فلسفية محورية عامة. بمعنى أن النسق هو نظام من العناصر المتماسكة والمتناسقة فكريا وذهنيا ونظريا. وقد يكون الترابط فيما بينها بالاتصال أو الانفصال. ويتسم النسق الفلسفي بالاتساق والترابط والانسجام، أو هو مجموعة من الأفكار الفلسفية المنظمة في محاور وقضايا، سواء أكانت منسجمة أم متعارضة"([7]).

فما النسق إلا مبدأ أو فكرة أو توجه ما، تدور حوله الكتابات والطروحات الفكرية، ويكون هو الرابط بينها، بغض النظر عن مدى اتساق هذا الأفكار أو تنافرها، فهي متفرعة من الفكرة الأساسية، سواء عمّقها وأضافت عليها، أو اقتربت منها، أو نأت عنها، فهي تصب في مجرى واحد. فإذا عرفنا كينونة

[7]) نظرية الأنساق المتعددة: نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة، د. جميل حمداوي، منشورات شبكة الألوكة الإسلامية، الرياض، 2006، ص12.

المجرى، ووقفنا على المنبع والمصب، ستكون الصورة واضحة أمامنا، بدلا من الغرق في التفصيلات والتفريعات، التي ربما تعطينا مزيدا من المعلومات، ولكنها لن تساهم في فهم الصورة على مستوى الإطار الكلي، فضلا عن فهم التفصيلات المتفرعة عنها.

فصورة الرسول(ﷺ) –في المتخيل الثقافي والديني والشعبي الأوروبي– منبعها نظرة دينية عدائية، ناتجة عن الاختلاف في الدين، والحقد على ما قام به العرب المسلمون من سيطرة على مساحات واسعة من البلدان البيزنطية المسيحية في شمالي أفريقيا والشام، ثم آسيا الصغرى، وجزر البحر الأبيض المتوسط، وكيف أن الإسلام الذي دخلت فيه شعوب البلدان المفتوحة أفواجا؛ هو تهديد للوجود المسيحي.

ولننظر إلى ما قيل من قبل المستشرقين الغربيين عن بدايات الصراع بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي: "قام شعب هائج –هم العرب أو السراسنة (البدو)– عُرِف بالسلب والنهب، وهو علاوة على ذلك شعب غير مسيحي، فاجتاح وخرّب أراضي واسعة، وانتزعها من قبضة المسيحية، ولقد وصلت الكارثة أخيرا إلى إسبانيا، والشواطئ الإيطالية، وبلاد الغال، وكانت موجة البرابرة الغزاة ذاتها هي دائما المسؤولة"([8]). ولننظر إلى المفردات المستخدمة في التوصيف السابق، لندرك طبيعة نظرة الغرب المسيحي إلى المسلمين، بأنه سعى إلى طمس أي صورة حقيقية عن النبي محمد، وقدّم صورة شائهة لتغذية المتخيل الفردي والجمعي/ الشعبوي؛ بما يجعل الإسلام نسخة مسروقة من المسيحية، والرسول محمد أحد الادعياء، الذي امتاح من المسيحية، وأعاد إنتاجها للسيطرة على أتباعه العرب الذين هم مجرد قطاع طرق، لا يعرفون تسامحا ولا تراحما، وإنما السلب والنهب، والدماء والقتل.

إن النسق السابق لم يتكون في سنة ولا عقد، وإنما هو حصيلة قرون متتابعة، شهدت روافد مغذية ومتتابعة لهذه الفكرة، فتعمق مجراها، واستوى في مؤلفات كبرى.

بمعنى أنه ليس مجرد فكرة سادت عددا من الكتابات ردحا من الزمن، ثم انتهت، وأنها كانت فكرة مغلقة، لم تُرفَد بالجديد، وإنما كانت صورةُ الرسول قابلةً للتطوير والإضافة، دون رقيب علمي أو أخلاقي، يتساءل عن الحقيقة ومصادرها.

ولذا، يتوجب علينا استحضار نظرية الأنساق المفتوحة التي يطرحها نيكولاس لوتمان، حيث يؤكد على أن النسق ليس مجالا مغلقا، بل هو مفتوح على المؤثرات المختلفة، والتي يمكن أن تكون مغايرة، فهناك مدخلات ومخرجات في النسق، وعلى حسب ما تكون نوعية المدخلات أي المعلومات، ستأتي المخرجات،

---

[8]) تراث الإسلام، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة: محمد زهير السمهوري وآخرانِ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط3، 1998، ج1، ص31، 32.

والأمر هنا كما يؤكد لوتمان ليس رياضيا أو تقنيا، وإنما هو افتراض مفاده أن المدخلات المتشابهة، ستعطي نتائج أو مخرجات متشابهة. ولأن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تكون مثل الآلة، فإن هناك ما يسمى الصندوق الأسود Black Book، وهو مختص بما يحدث في داخل النسق، من تحولات بنيوية، قد لا تأتي بالمخرجات المتوقعة أو المأمولة، مما يفتح المجال لدراسة النسق ذاته على المستوى البنيوي، وما فيه من تعقيدات مجهولة، قد لا ينتبه إليها مدخلو البيانات، أو لا يعيها مستقبلو المخرجات([9]).

وتلك قضية غاية في الأهمية، فالنسق ليس ماكينة ولا مسألة حسابية، وإنما هو تفاعل إنساني: عقلي ومعرفي ووجداني، فيمكن أن تكون المدخلات تحوي توجها بعينها، ولكن تجد مقاومة مضادة في داخل النسق، أو اختلافا من مدخلات أخرى، تتفاعل كلها في داخل النسق، ويتوجب علينا فهم المدخلات والتفاعلات والمخرجات.

فصورة الرسول محمد(ﷺ) في المتخيل الجماعي الغربي، لن نفهمها إلا إذا أدركنا أنها تشكلت من خلال المدخلات ألا وهي السرديات والكتابات التي أخذت تترى في الوعي الجمعي الغربي بديانته المسيحية، شفاهية وكتابية، داخل الكنائس والأديرة، وخارجها في بلاط الملوك والأمراء؛ كي تجيب عن أسئلة العوام، حول ماهية هذا الرسول الجديد، وديانته التي يروّجها أتباعه، وكانت سببا في سقوط الدولة الفارسية، وفي اضمحلال الدولة البيزنطية، بل إن الخلافة الإسلامية التي امتدت أكثر من ثلاثة عشر قرنا، كانت أكبر تهديد للعالم المسيحي، سواء كانت من الشرق من لدن آسيا الصغرى، بعد فتح القسطنطينية (1453م)، وتصفية ما تبقى من بيزنطة، بجانب التهديد من الغرب، أو كانت من الغرب من قبل الخلافة الأموية في الأندلس، أو من الممالك التي ورثتها، وكانت لها امتداداتها في بلاد المغرب العربي.

فيكون السؤال: كيف نظر العالم المسيحي إلى رسول الإسلام؟

والإجابة سنجدها جلية إذا تعقبنا الكتابات التاريخية القديمة وفي القرون الوسطى، وصولا إلى العصر الحديث، وبذلك ستكون المخرجات هي كتابات فيها كثير من المغالطات، ولكن قد تُضادُها مواقفُ وكتابات ومقولات تخالف المخرجات المتوقعة، مما يستلزم النظر في شخصية القائل أو الكاتب، وأيضا كيف نظر إلى شخصية الرسول(ﷺ)، وإلى الإسلام ذاته، وهل قرأ الإسلام وتعرف على محمد(ﷺ) في مصادره الأصلية، أم ردّد الأكاذيب والمغالطات الشائعة في الأوساط الكنسية والشعبية؟ وبالتالي، فإن الأمر يحتاج إلى النظرة العامة للنسق: مدخلاته ومخرجاته، وأيضا التفاعلات الداخلية/ البنيوية فيه، لنتعرف أوجه التشابه والاختلاف بين المدخل والمخرج من ناحية، وتكتمل الصورة أطرا وتفصيلات من ناحية أخرى.

---

[9]) مدخل إلى نظرية الأنساق، نيكولاس لوتمان، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ألمانيا- بغداد، 2010، ص63- 65.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

خاصة أن محمدا (ﷺ) لم يكن مجرد شخصية عادية في الفكر الغربي، وإنما إذا ذُكِرَ شفاهة أو كتابة؛ استدعت الذاكرة الفردية والجمعية سيلاً لا ينتهي من التصورات والمفاهيم والمعلومات عنه؛ كشخص ونبي، وعن المؤمنين به، بما يعني أنه صار أيقونة دالة، هو كلمة واحدة، تستدعي مئات الأفكار، وأيضا بمنظومة من السرديات، التي نسجها العقل الغربي، في قرون متتابعة، وبعبارة موجزة فإن محمدا ليس مجرد كلمة تلفظ تعبر عن نبي الإسلام، إنما هو أفكار ومغالطات وتصورات.

ولذا، فإن أفضل السبل لفهم طبيعة النسق الغربي الذي صوّر الرسول محمد(ﷺ) هو الاستفادة من علم العلامات (السيميوطيقا Semiotics)، وهو ما يرسخه أرثر أيزابرجر، حيث يرى أن النصوص بجميع أنواعها تُعَدُّ ظواهر رمزية، مثل الكلمات وتصرفات الشخصيات، والمواقع الجغرافية، فخصائصها الرمزية والأسطورية تجعلها بالغة التعقيد، وتحتاج إلى تأويلات عديدة. فالعلامات تسعى لشيء ما، ألا وهو تقديمها للمعاني، التي ترتبط عادة بالأحداث التاريخية، فالرمز أيا كان كلمة أو صورة؛ يحتوي على جميع الأمور الخارجية المتصلة به، وهو ما يجب التفكير به، ونحن درس الأيقونات والرموز الدينية، وعندما يقوم العقل باستكشاف الرمز، سيهتدي إلى الأفكار التي تكون وراءه، كما نستخدمه في محاولاتنا لتقديم إجابات عن افتراض ما بأن هناك فهما مشتركا لما يعنيه رمز أو مجموعة من الرموز ذات الصلة([10])، وبذلك يأخذنا البحث للنظر في المصاحبات اللغوية وغير اللغوية التي حفلت بها الرموز الدينية، وعبّرت عن أفكار وتصورات.

فقد أصبح محمد(ﷺ) علامة في الفكر الجمعي الغربي محملا بدلالات وأفكار عديدة، بمعنى أن محمدا هو رمز، عندما نقرأه في الموروث التاريخي الغربي، سنكتشف أن فيه حمولات دلالية وأفكار، وأيضا معلومات وأساطير، صيغت على مرّ العصور، عبر كتابات وخطابات موجهة إلى العالم المسيحي عن الرسول والإسلام.

والسؤال هل هذا الإرث –بكل ما فيه تشويه– موجود حتى يومنا؟

والإجابة يذكرها محمود حمدي زقزوق، مقررا أن الأوروبيين —في غالبيتهم– يستقون معلوماتهم عن الإسلام وعن الرسول من كتابات المختصين الأوروبيين الذين هم من فئة المستشرقين، وكذلك من كتابات الفلاسفة الأوروبيين، التي تستقي معلوماتها أيضا من المستشرقين. ويضيف بأن الاستشراق قد أفاد التراث العربي في الفهرسة والتحقيق، ولكن المستشرقين وقعوا في أغلاط شنيعة، تلقفها منهم بنو قومهم، وأيضا العلمانيون

[10]) النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الثقافية، أرثر أيزابرجر، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص124.

العرب الذين لم يدرسوا الإسلام من مصادره ولم يعرفوه حق المعرفة، وخُدِعوا بدعوات المناهج الجديدة، ونقد التراث الديني، كما أن كثيرا من المستشرقين لا يقرأون كتابات المسلمين المعاصرين التي تناقش أفكارهم، ويعتبرونها كتابات عاطفية، فالأمر بين الشرق والغرب هو حوار طرشان([11]).

والأمر ذاته مع العلمانيين العرب، فحوارهم مع المفكرين الإسلاميين أشبه بحوار متكلمين بلغات غير مفهومة، كلٌ يطرح قضاياه وردوده فلا يعيها الطرف الآخر، ويظل الاثنان يتبادلان الاتهامات، بدون الوصول إلى أرضية مشتركة، أو هدف يمكن الاتفاق عليه، وكأن كل طرف متحصن فيما عنده، وله مصطلحاته ومفاهيمه التي يرى الطرف الآخر غير واع لها، وإن كنا نلاحظ استعلاء العلمانيين على الإسلاميين بما يسمونه المناهج البحثية الجديدة في قراءة الإسلام والتراث العربي، ويرون أن الإسلاميين ما هم إلا تراثيون لا يعون من علوم العصر إلا قليلا.

وربما يقول قائل وهل الغرب يتعامل مع كل الأديان الأخرى بنفس هذه الروح العدائية المستحكمة، التي تعتمد على أكاذيب، أو الصورة المغلوطة؟

يأتينا الرد من زقزوق الذي يقرّ أن الإسلام عامة، والرسول خاصة، لهما ميراث أسود ونظرة عمياء عند الغرب، على عكس موقف الاستشراق الغربي من البوذية والهندوسية، وسائر الأديان الوضعية، حيث يتعمد المستشرقون الموضوعية في النظر إليها، والتنقيب في المصادر الأصلية لهذه الأديان؛ دون أي تجريح لهذه الديانات أو الحط منها، على الرغم من أنها ليست سماوية، بل هي أقرب للوثنية.

أما سهام النقد والتجني فتُوَّجه إلى الإسلام ورسوله؛ بقاموس لا ينتهي من الاستهزاء والتحقير، وفي المقابل فإن المسلمين يتعاملون مع المسيحية واليهودية بشكل موضوعي، فلا تسمح لهم عقيدتهم بالغمز واللمز في موسى وعيسى (عليهما السلام) لأنهما نبيانِ من الله سبحانه يتوجب لهما القداسة والتوقير([12]).

ولذا، يلزم علينا الوقوف على الصورة الكاملة؛ أو بالأدق حقيقة صورة محمد في التراث الغربي، كيف نظروا إليه، وكيف تلقوا رسالته، وهو ما يستدعي النظر إلى الاستشراق الغربي من ناحية، وأيضا كتابات المؤرخين الغربيين، غير المستشرقين من ناحية ثانية، لننظر هل الصورة واحدة في كتابات الاستشراق والمفكرين والقساوسة، أم أن هناك اختلافا فمن اطلع على كتب الشرق لا يستوي مع من لم يطلع.

---

[11]) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص12، 13.

[12]) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1987، ص14.

صورة الرسول في الغرب: الأبعاد والتفاصيل والمصادر:

بالنظر إلى من كتبوا عن الرسول محمد في القرون الوسطى، نجد غالبيتهم من القساوسة والمؤرخين التابعين للكنيسة، بعضهم رحل إلى المشرق، وتعرف عن كثب على المجتمعات المسلمة، وبعضهم الآخر لم يتعرف على المسلمين أو الإسلام، فقد ظلوا حبيسي الجغرافيا في أوروبا، فالمشترك بين الفئتين أنهم لم يطلعوا على أي مصدر من مصادر الإسلام المعتمدة عن الرسول، وإنما تداولوا ما هو شائع في الثقافة الغربية، وما يتردد في الكنائس وعلى ألسنة الأعيان والعامة.

هذا في داخل أوروبا، فما بالنا إذا كان هناك مسيحيون يخالطون المسلمين، على نحو ما نجد في الأندلس. فبعد سيطرة المسلمين السياسية على أرضها، ظهرت مؤثرات ثقافية عربية على شعوب إسبانيا، أضرت بالدين المسيحي في وجهة نظرهم. فكان لابد من الدفاع عن الهوية المسيحية، فظهرت فئة المستعربين Mozarabs، لدراسة الإسلام والعربية والرد على الدعاة الإسلاميين، والوقوف ضد الغزو الثقافي والديني لهم، وانتشرت في المقابل أساطير مشوهة ومهينة بين عامة الشعب من المسيحيين واليهود، تخالطها بعض الانطباعات الصحيحة الناشئة عن الاتصال اليومي مع العرب المسلمين. ومن هنا بدأت دراسة الإسلام، من قبل المسيحيين الشرقيين، مثل يوحنا الدمشقي، بهدف نشر تحليلهم للإسلام لمقاومة تأثيره عليهم، ولكن الحماسة العدائية التي أظهرها كهنة من أمثال أبولوجيوس والفاروس وأتباعهما، في الفترة القصيرة (850- 859) لإقناع طبقة الكهنوت المسيحية وعامة الشعب المسيحي بالمقاومة وتعطشهم للاستشهاد ضد المسلمين؛ كل ذلك حال دون بذل الجهد الفكري اللازم لمعرفة خصومهم المسلمين وفهمهم([13]).

إن تقديم أية صورة صحيحة عن الإسلام والرسول لابد أن تكون نابعة من وجود معرفة أمينة تقدم عنهما، وهو ما تم حجبه عن عامة المسيحيين واليهود، وهذا متوقع، في دائرة المقاومة النفسية والدينية والفكرية، والسعي للحفاظ على الهوية المسيحية لشعوب أوروبا، كما أنه من المتوقع أيضا أن المسيحي البسيط يكتفي بالإجابات والتصورات الجاهزة التي يسمعها من الكهنة والرهبان، ليكوّن قناعاته عن الإسلام والرسول، بغض النظر عن نوعية التشويه، وضخامة المغالطة.

لقد كانت الصورة الأولى والعامة للنبي محمد (ﷺ) في الفكر الغربي في القرون الوسطى تتمثل في أن محمدا علامة على الوثنية ورمز لها، وأنه أفّاقٌ نهلَ من المسيحية وصاغ منها الإسلام. وهذا ما شدد عليه عبد الرحمن بدوي، عندما ساءلَ التراث الغربي في العصور الوسطى عن الرسول محمد (ﷺ)، بوصفه علامة فكرية ورمزية ليكتشف كمًا من المفاهيم والأفكار والأخطاء التي لا نهاية لها؛ محملةً بجهل مطبق، وعدوانية

[13]) تراث الإسلام، شاخت، وبوزورث، مرجع سابق، ج1، ص33.

واضحة، وأحكام مسبقة متأصلة، تعبر عن تحزّبهم الطاغي ضد خصومهم؛ ينطبق ذلك على الشعوب الأوروبية الساذجة المسكينة (المجّهلَة)، وعلى المفكرين والعلماء والفلاسفة ورجال الدين والمؤرخين، وخلال خمسة قرون، من القرن الثاني عشر إلى السابع عشر الميلادي، لم يكن لدى واحد من هؤلاء المفكرين الشجاعة لتحرّي الحقيقة، والموضوعية، والعودة إلى المصادر الأصلية عن الرسول والإسلام. هذا على مستوى أعلام المفكرين، من مثل: ألبرت الكبير، وتوماس الأكويني في القرن الثالث عشر، وكذلك فرنسيس بيكون، وبسكال، وسبينوزا، في القرن السابع عشر؛ فلم يبذلوا أي جهد لمعرفة الإسلام، علما بأنهم عرفوا الفلاسفة والعلماء العرب واطّلعوا على كتبهم؛ ومع ذلك لم يفكروا أن ينهلوا من المصادر الإسلامية الدينية، وإنما استندوا في معرفتهم بالإرث التاريخي عن محمد بالموروث الكنسي والشعبي عندهم؛ وأقل ما يوصف به أنه مملوء بالحقد والكراهية، فذكروا قصصا عجيبة عن شخص الرسول، أبرزها: أنه كان مسيحيا، طُرِد من الكنيسة، وأراد الشهرة، فهاجر إلى جزيرة العرب، وهناك ادّعى النبوة، واخترع القرآن، مستفيدا مما تعلمه في الكنيسة من قبل. وتباينت في ذلك كتبهم، فالمؤرخ اليوناني ثيوفان (751– 818م) يذكر أن محمدا تعلم ديانته من اليهود والنصارى في فلسطين، في رحلاته إلى الشام، وكان حوله عشرة من اليهود زيّنوا له عمله ورأوا فيه المسيح، وتآمروا لتشويه المسيحية، من خلال دعوته، لأنه كان يأكل لحم الإبل، وهو محرم في اليهودية. أما الراهب جيوبرت (1052– 1124م)، فيدّعي أن هناك شخصا كان في كنيسة الإسكندرية يدعى ماثوموس، وقد طُرِد من الكنيسة، وقد وأن الشيطان وسوس لبابا الإسكندرية، ليعلن أن ماثوموس مسيحي وقد غادر مصر إلى جزيرة العرب، وسمّى نفسه محمدا، وتزوج سيدة غنية هي خديجة. ثم تكونت أسطورة عجيبة بناء على ذلك، تزعم أن محمدا هذا تلقى العلم عن الراهب بحيرا، وأن محمدا أحضر بقرة (في إشارة إلى سورة البقرة)، ووضع بين قرنيها كتابا ثم أخرجها إلى الناس، مدّعيا أنه قرآن؛ أباح فيه كلَّ اللحوم، وكل المفاسد الأخلاقية. وقد توقف مؤرخو العصور الوسطى عند دور الراهب بحيرا، وذكروه كثيرا في كتبهم، وقالوا إن اسمه الحقيقي سيرجيوس، وهو من هراطقة النساطرة، وقد لقّن محمدا كل ما ينقصه من معرفة، من تعاليم العهدين: القديم والجديد، وفق التفسير النساطوري، الذي لا يعترف بألوهية المسيح، بجانب خرافات وقصص من التوراة([14]).

ونقول هنا: علينا الإدراك أن السردية السابقة ستكون عمودا فقريا، أو بالأدق النسق الأساسي الذي ستبنى عليه أسطورة محمد المشوهة في التراث الغربي، حيث سيتكرر معنا –بعدئذ– فكرة أن محمدا هو

[14]) دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، د. عبد الرحمن بدوي، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر والتوزيع، 1999، ص5-7.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

مسيحي في الأساس، وهناك من لقّنه أصول المسيحية، وعلمه كيف يصوغ كتابه، كما سترد رموز: البقرة، واللحوم المحللة، مؤسسةً على فكرة أن الإسلام استنساخ للمسيحية، يبيح لأتباعه ما حُرِّم على المسيحيين، في الأطعمة وعدد الزوجات والطلاق والسرقات، وقِسْ على ذلك كل ما يختلف فيه الإسلام عن المسيحية، فكأنه حوى ما حرمته المسيحية.

ففي القرن الثاني عشر الميلادي، أشار جاك دي فيتري (1187– 1240) أن محمد كان قسيسا يدعى سوسيو، طرده البابا من روما، ونفي إلى جزيرة العرب، فانتقم سوسيو من البابا، بالهرطقة التي ادعاها، مع وساوس شيطانية كانت تنتابه(يقصد الوحي) ويصف في رسائله المسلمين بأنهم وثنيون، لا يدخرون أي جهد في التحرش بالمؤمنين بالرب يسوع([15]). وكتب فيتري ذلك عندما عاش فترة طويلة من الزمن في بيت المقدس، مرافقا للحملة الصليبية الخامسة المتوجهة إلى مصر، وكان تأثيره الديني على الجنود والأمراء لا يقل عن بطرس الناسك، الذي كان أكبر محرض للحملات الصليبية على الشرق([16])، ولأنه لا يوجد مصدر ثابت يأخذ منه هؤلاء معلوماتهم عن محمد، فهم يعمدون إلى ما تفيض به مخيّلتهم، ويزيدون على ما سبقوهم، فلا نعلم أي مصدر إسلامي اعتمد عليه فيتري فيما أورده عن محمد، وقد عاش في الشام، ولم يفكر لحظة في سؤال المسلمين عن سيرة الرسول، ولا في الاطلاع على مصدر واحد عن سيرة الرسول كما دونها المسلمون، بل سار على نفس النسق الموروث، بأن محمدا كان قسيسا مهرطقا، وزاد على من سبقوه مدعيا أن الوساوس الشيطانية كانت تعتري محمدا، ويدّعي لأتباعه أنها وحي من الله سبحانه.

أما معاصره مارتين بولونكو (ت1284)، فهو يصف محمدا بأنه قاطع طريق، وأخذ ديانته عن سرجيوس الراهب، وهو أيضا مدع وساحر وكذاب، وانتشرت شريعته بحد السيف. ويعمق المؤرخ فانسان دي بوفيه (1190– 1264) هذا التوجه، في موسوعة سطرها في أربعة أجزاء، بأن محمدا كان يصاب بنوبات صرع، وأنه أجاد فن تحضير الأرواح، مشيرا إلى أن محمدا تعلم من الراهب سرجيوس الأفّاقِ المطرود من الكنيسة، وأنه ألّف القرآن مستوحىً من التوراة والإنجيل، ولكن اليهود في المدينة خافوا أن يصل إلى المسيحية الحقيقية، فدسّوا عليه جماعة من اليهود؛ أضافوا للقرآن تعديلات، وحذفوا منه مقاطع، كما يعيد دي بوفيه إنتاج حكاية البقرة، مضيفا لها العسل واليمامة المروضة، وأوعية اللبن. وسار على نفس الدرب جايوم الطرابلسي في مذكراته التي سجلها في دير بطرابلس بلبنان عام 1271م، تحدث فيها عن رحلاته إلى سورية، ومع

---

[15]) رسائل جاك دي فيتري: دراسة وثائقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، 1200– 1240م، ترجمة: د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2005، ص70، 71.

[16]) السابق، ص7– 9.

ذلك لم يستفد من قربه من مجتمع المسلمين، بل واصل نفس النغمة، مؤكدًا على دور الراهب بحيرا الذي عاش في الطريق بين مكة وسيناء، ويدّعي أن ذلك كان وحيا إلهيا إلى بحيرا، إلا أنه أضاف جديدا على من سبقه، فجعل محمدا عربي الأصل، بل هو من أهل مكة بالفعل، توسّم فيه بحيرا منذ أن رآه في رحلة تجارية بالشام أنه سيكون ذا شأن يوما ما، وقد استضاف بحيرا هذا الطفل الفقير اليتيم، وأعطاه الطعام والملبس، ثم إن الطفل كان يتردد عليه بانتظام فتعلّم منه المسيحية. فلما كبر محمد، تزوج من أرملة ثرية (خديجة)، ويزعم جايوم أن عشرة من أتباع بحيرا غاظهم اهتمام بحيرا بمحمد، فقتلوا بحيرا، وتعللوا لمحمد عندما سألهم عن سبب قتله، بأنهم كانوا سكارى، فحزن محمد بشدة، وسارع بتحريم الخمر على المسلمين، ثم إن دعوته انتشرت واشتهر المسلمون بأنهم قطاع طرق، يسلبون الناس أموالهم، وقتل العباد حتى وفاة محمد([17]).

إن المفارقة في الإرث الغربي –في تصوره عن محمد– هو التضخيم الهائل لشخصية سرجيوس (الراهب بحيرا)، التي صارت العمود الفقري لأسطورة محمد في القرون الوسطى، وأضحت دعامة ضمن النسق الفكري في تصور الكنسيين للإسلام، الذي لا يمكن أن يكون دينًا منزلا من الله، بوحي نزل على محمد، وإنما هو نسخة مستوحاة من المسيحية. لذا، فإن الكتابات التالية في القرون الوسطى، واصلت تضخيم دور سرجيوس؛ فالمؤرخ بيير باسكاسيو (1228– 1300م)، يقرر أن سرجيوس القسيس الطامح لم يجد حظًا في روما، فتوجه لجزيرة العرب، على قناعة تكونت من قراءة سابقة له عن قصة إبراهيم التوراتية بأن العرب شهوانيون ماديون. وقد عاش سرجيوس في معزل عن الناس، حتى قابل الشاب محمدا (الذي هو عربي)، وعلمه المسيحية، وأيضا تحضير الأرواح، واللغات، وكذلك اتفق معه على الإتيان ببعض المعجزات مثل اليمامة والبقرة والثور الأبيض، الذي روّضه محمدا، حتى خضع له. ولم يرجع سرجيوس لبلاده، بل عاش مع الصحابة، وعمل قاطع طريق، وكان اسمه موجودا ضمن صحابة محمد ومعلوم أنه مسيحي. فما فعله باسكاسيو أنه أعاد إنتاج الروايات الأوروبية، وأضاف عليها، وسردها كقصة مترابطة، مؤكدا على عربية محمد، ولكنه تمسك بكل ما ورد في الموروث السردي الأسطوري، بأن سرجيوس هو المعلم والملهم الأساسي لمحمد. علما بأن باسكاسيو عاش في الأندلس، وتوافرت أمامه المصادر الإسلامية، إلا أنه لم يستفد منها، ولم يناقش العلماء ولا الفقهاء المسلمين المعاصرين له، وتكمن المشكلة– التي يؤكد عليها عبد

[17]) دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، مرجع سابق، ص8 ، 9.

الرحمن بدوي– في أن هذه المقولات الأسطورية عن محمد لا تزال تتردد في الكنائس الشرقية، والكنائس الغربية على السواء حتى يومنا([18]).

بما يعني أن الحاضر متصل بالماضي، أو أن التاريخ لا يزال حيًا في واقع الثقافة الغربية، بكل إرث التصورات الكنسية والشعبية عن الإسلام والرسول، والذي لا يمكن أن تقبل به نبيا مرسلا، ولا أن تعترف بالإسلام ديانة إلهية سماوية. في حين تقدر وتجلّ الديانات الوضعية، وإن كانت وثنية بها هرطقات وأساطير وخرافات لا تنتهي؛ وذلك على الرغم من توافر المصادر الإسلامية، وكثرة الترجمات إلى اللغات الأوروبية، ولكن تظل القناعات المتوارثة هي السائدة، والمعتمدة، بل هي المحرك الأساسي للساسة والسياسة، وكأن القضية الإبقاء على التشويه، دون سعي إلى التصحيح، مع التسليم بأن هناك أصواتا منصفة غرّدت أو تغرّد خارج هذا الإرث.

وهذا ما يؤكده زقزوق بأن الصورة المجملة التي نقرأها عن محمد في الميراث الغربي، –والذي لا يزال مستمرا في غالبيته إلى يومنا– يخرج بانطباع محدد وهو أن المسلمين يعيشون في وهم كبير، وأكذوبة تاريخية؛ عندما يعتقدون أن القرآن وحي من الله. فالإسلام في كتابات الاستشراق قديما وحديثا هو إسلام من صنع خيال المسلمين، وأن محمدا الذي يؤمن المسلمون برسالته، إنما هو شخصية مخترَعة لا يعرفها المسلمون، فيكون السؤال: ماذا يتبقى للمسلمين وللإسلام عندما نطعن في قرآنهم ورسولهم؟([19]). وهو السؤال الذي علينا أن نطرحه على العقل الغربي، الذي تتراكم مؤلفاته عن الإسلام طيلة قرون، دون أن يُعملوا النظر في تأمل الإسلام وفق مفهوم المسلمين وتصوراتهم عنه، أي أن نفهم الإسلام فهما حقيقيا، وليس كما هو كائن في العقل الغربي، فهذا أولا من باب الموضوعية والأمانة العلمية، وثانيا: لأن الغرب سيظل يدور في حلقة مفرغة يفترض فرضيات عن الإسلام غير كائنة، ومع ذلك يقاتل من أجل إثباتها، بل إنه يريد أن يقنعنا بها نحن المسلمين.

صورة الرسول بين المتخيل الجمعي الغربي وفوبيا العقول:

السؤال الذي ينبغي طرحه في ضوء ما أسفرت عنه صورة محمد في القرون الوسطى، لمن يتم توجيه هذا الخطاب؟ والجواب أن صورة محمد بكل ما فيها من خزعبلات وترّهات وأكاذيب؛ هي موجهةٌ فقط إلى

[18]) المرجع السابق، ص10 ، 11.

[19]) الإسلام في تصورات الغرب، ص14.

الشعوب الأوروبية ورعايا الكنائس، وذلك بإلحاح متصل منهم على إكمال نحت هذه الصورة المكذوبة، والبناء على الموروث منها، مما يعني بوضوح أن الهدف ليس النقاش مع المسلمين، ولا مخاطبة بني الإنسانية، وإنما المحافظة على لحمة الوجود المسيحي في أوروبا، إزاء الآخر المتمثل أمامه وهو الإسلام، وممالك الإسلام شرقا ممثلا في الخلافة الإسلامية ببغداد أو الدولة العثمانية، أو غربا في مملكة الأندلس، فهي صورة موجهة للداخل الأوروبي، وتكون المفارقة أن الشعوب الأوروبية تمثلت هذه الصورة، واستقرت في وعيها الجماعي، وأضحت لا تقبل بغيرها، ولا تسعى إلى تصحيح خطئها، بل إنها اعتبرت إعادة إنتاجه؛ أشبه بدعم دينها ووجودها. وبالأدق هي صورة أنتجها المتخيل الأوروبي الداخلي، وتوجه بها نحو الجماعة الشعبية فاختلطت بالوجدان والخيال الشعبي، لتتعمق الأسطورة أكثر، وتصبح مسلمات لا جدال فيها.

مما أدى إلى –ما أسماه أليسكي جورافيسكي– "حالة من الفوبيا أو الخوف المرضي الديني بالمعنى الحرفي للكلمة، في الوعي الشعبي الغربي ضد الإسلام، ومن جهة أخرى نجد فهما واضحا للدين المسيحي وفق النمط الغربي لدى النخبة الأوروبية المثقفة، على خلفية ضرورة تبادل القيم الدينية والروحية مع الشعوب والديانات الأخرى، الأمر الذي يفرز –بكل تأكيد– احتراما وتقديرا لمنجزات الحضارة الأخرى المعادية في ميدان الثقافة والعلم على الأقل. ولكن تقتضي الموضوعية أن نعترف بحقيقة أن السياق الداخلي الاجتماعي والثقافي للعالم العربي والإسلامي أي ذلك السياق الذي أبدع في إطاره العلماء والفلاسفة المسلمون، ممن أصبحوا أساتذة ومعلمين لأوروبا بالقرون الوسطى؛ بقي من حيث الجوهر، مجهولا كلية حتى بالنسبة للعقول الأكثر استنارة والأرقي تعليما في ذلك العصر"([20]).

يبدو كلام جورافيسكي متناقضا بعض الشيء، فهو يقول إن النخبة الأوروبية المثقفة كانت مؤمنة بأهمية تبادل القيم الدينية والروحية مع الشعوب الأخرى، وهو كلام عام، ويبدو أن هذا قد ينطبق على كل الديانات، إلا الإسلام، حيث نرى في ضوء المعلومات التي أوردناها في الدراسة عن محمد تنقضه، لأن النخبة المثقفة في القرون الوسطى كانت تابعة للكنيسة، التي فرضت على أتباعها تصورا شبه ثابت عن محمد، وعن الإسلام، ولم نجد أية كتابة أخرى تعارض أو ترفض هذا التصور، وفي الوقت ذاته يعود جورافيسكي ويعترف بأن جوهر الحضارة الإسلامية والمجتمع المسلم (والإسلام أيضا) كان مجهولا بالكلية بالنسبة للعقول المستنيرة الراقية في أوروبا. بما يعني أن الإسلام وحضارته وشعوبه كانت غائبةً ومغيبة عن العقل الأوروبي الشعبي والنخبوي، فأين هو تبادل القيم الدينية والروحية الذي يتحدث عنه لدى العقول

[20]) الإسلام والمسيحية، أليسكي جورافيسكي، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، مراجعة د. محمود حمدي زقزوق، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص34، 35.

المثقفة؟ وهذا السؤال لا يعني أن الديانة المسيحية تقرّ التعصب، فهذا لا يمكن القول به، ولا قبوله، وإنما التعصب كان كامنا –إن لم يكن متوغلا ومتوحشا– في مسيحيي أوروبا، الذين رأوا الإسلام هرطقة وكفرا، ورسوله مدعيا كاذبا، ولذا، نتفق في القول مع جورافيسكي حول حالة الفوبيا المرضية التي سادت النفسية الأوروبية، نحو الإسلام، وللأسف لا تزال موجودة إلى يومنا ضمن ما يسمى الموروث التاريخي الجمعي، والذي نلمسه فيما يسمى الإسلاموفوبيا، بكل ما تحمله الكلمة من عصبية، لا تزال حالة العداء ضد الإسلام، بكل رموزه الكائنة في الغرب على نحو ما رأينا في صعود أحزاب اليمين المتطرف في كثير من البلدان الأوروبية، والحالة قائم وأشد في الولايات المتحدة الأمريكية.

وهو ما يشير إليه ستيفن شيهي حول أحزاب اليمين المسيحي المتشدد، أو الجماعات اليهودية الداعمة للصهيونية. فالإسلاموفوبيا حالة فكرية ونفسية تسود جميع مستويات الحياة الأمريكية، من اليمين إلى اليسار، ومن المؤمنين إلى الملحدين، وازدادت بشدة خلال حقبة بوش الابن وداعميه، الذين سيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا، ويعتقدون أن كل مسلم حقير أحمق وإرهابي. أما خطاب الساسة الأمريكيين المحافظين والديموقراطيين فحافل بتنميطات تستدعي لا عقلانية العرب والمسلمين، وعدائهم للحداثة، من أجل تبرير دعم هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية. وتظهر مشاعر الإسلاموفوبيا جلية في قطاعات عديدة في أمريكا، وتفيض بها وسائط الإعلام، ومراكز الأبحاث، والخبراء والمتفقهون المزعومون، والمخبرون المحليون والأكاديميون وجماعات الضغط، وتنظيمات النشطاء، بخطابات كراهية تنعكس في السلوكيات([21])، وقد رأيناها في حوادث القتل والتمييز العنصري والتي تبدت أكثر بوضوح في حقبة ترامب، أو ما يسمى الحالة الترامبية، التي حملت عداء واضحا ضد الأجانب عامة، وضد المسلمين بشكل خاص، بما يعني أنها ليست ظاهرة مؤقتة، وإنما هي متجذرة، في الموروث الثقافي والديني للغرب عامة، بل تحولت إلى جزء من الخيال الجمعي، وما تشويه صورة الرسول إلا إحدى نواتج هذا الهوس بالإسلاموفوبيا، وما قضية الرسوم المسيئة للرسول (ﷺ) ببعيدة عنا.

وهو ما يتطابق مع مفهوم المتخيل وتمثيلاته وعلاقته بثقافة الجماعة ووجودها، على نحو ما يطرحه نادر كاظم، حيث يربط المتخيل بأشكال تمثيله، وبمرجعياته وخلفياته. بمعنى "البحث في المحركات التي يتأسس عليها، والمنطلقات القبلية التي سمحت له بالظهور في ثقافة معينة، وفي فترة تاريخية محددة، غير أنه لا يمكن أن يُفهَمَ من هذا أن المتخيل محكوم بمرجعيات بصورة مطلقة لا فكاك منها، فالصحيح أن العلاقة بين

[21]) الإسلاموفوبيا: الحملة الإيديولوجية ضد المسلمين، ستيفن شيهي، ترجمة: د. فاطمة نصر، إصدارات سطور الجديدة، القاهرة، ط1، 2012، ص39، 40.

المتخيل ومرجعياته ليست ثابتة، ولا هي محددة بصورة نهائية، إن هذا المتخيل لا يوجد إلا في ثقافة ما، أو في جماعة بشرية تلجأ إليه في محاولة للتعرف على ذاتها، من خلال المقارنة مع الآخرين، كما أن أية ثقافة أو جماعة بشرية لا تستغني عن المتخيل، فهي بحاجة إلى المتخيل لكي تؤسس وجودها، ولكي تعطي لهذا الوجود قيمة ومعنى.. فالمتخيل يتشكل في مجتمع بفعل مرجعيات وسياقات تاريخية متعددة ومتداخلة"([22])، وليس نتاج فرد واحد أو حقبة واحدة.

فقد أصبح المتخيل جزءا من الواقع الثقافي المعيش، فلا ثقافة بلا متخيل، بل إن الثقافة تحقق وجودها من خلال المتخيل نفسه، فكلاهما وجه لعملة واحدة، والقضية ليست في طبيعة المتخيلات فقط، وإنما في مرجعيتها وبواعثها، والتمثيلات أو الأشكال التي ظهرت فيها في النهاية، والخلفيات والبواعث معروفة في قصة محمد (ﷺ) في المتخيل الغربي، وجاءت التمثيلات السردية/ الأسطورية تقريبا متشابهة، أو متقاربة، وهذا، ما توقف عنده المستشرق الإيطالي إليساندرا داكونا محصيا حصيلة صورة محمد في غالبية السرديات الأوروبية، فذكر أن محمدا دوما له مستشار علّمه المسيحية؛ مرات يكون سرجيوس، ومرة يكون ورقة بن نوفل، وهما ما بين مؤمنينِ مدافعينِ عن المسيحية، أو هما من الهراطقة المتمردين عن المسيحية، بأن يكونا من الأريان أو النساطرة أو اليعاقبة، أو الهراطقة. أما محمدا نفسه، فيقَدّم على أنه وثني، أو مسيحي يدعى أوكين، أو بلاجيوس، أو نيقولا، وهو أيضا ساحر وأمي، أو هو عالم كنسي من بولونيا، وقد وفد إلى جزيرة العرب من أنطاكية أو القسطنطينية أو من أزمير، أو من مناطق وثنية أخرى، أو مناطق مسيحية، أو هو إسباني، أو عربي، أو روماني من عائلة كولونا، ومرة يختلط باسم معلمه، ومرة يكون هو الراهب أو المطران الذي أوشك أن يصبح بابا. كما تتداخل الأساطير الشعبية الشفوية بقوة في الروايات، مما يعكس اضطراب العقليات، ولكن الثابت أن محمدا إما هو مسيحي، أو تعلم على مسيحي، وأن الإسلام ما هو إلا تشعب هرطيقي من المسيحية. والأغرب أن الشخصيات الثلاثة التي يدّعون أنها صاحبت محمدا: سيرجيوس، ونقولا، وبلاجوس، هي أسماء حقيقية لشخصيات معروفة بالتمرد والانشقاق في القرن السابع الميلادي، وكلها مذكورة في المصادر المسيحية([23]). فقد أوجز إليساندرا داكونا الصورة الكلية، التي نحن بحاجة إليها، دون الإغراق في الرد على تفصيلات، فما فائدة الرد على فرعيات ومتناثرات، والمرجعية الفكرية تعاني العطب، وتفتقد الأدلة، ولا علاقة لها بالأصل والحقيقة، وما أسوأ بناء مسلمات على ترهات!

---

[22]) تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، منشورات وزارة الثقافة والتراث الوطني، البحرين، ط1، 2004، ص34.

[23]) دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، ص15، 16، 17. أورد المؤلف نص مقال إليساندرا داكونا، وعنوانه: أسطورة محمد في الغرب، وقد نشر في الجريدة التاريخية للأدب الإيطالي، عام 1889.

ويضيف جورافسكي على ما قاله داكونا الكثير من التشوهات والأكاذيب التي أساءت إلى صورة الرسول، وأبرز ما ذكره أن محمدا سمح بالدعارة والفسق، لكسب المزيد من الأتباع، وزعموا أن القرآن نفسه يبيح اللواط، وأن محمدا كان في الأساس كاردينالا يدعى هاهومت، أو مومت، أو موميتو، هرب إلى جزيرة العرب بعدما فشل في اعتلاء كرسي البابوية. وفي المؤلفات الجدلية اللاهوتية، أثبتوا أن محمدا لم تكن لديه أية قدرة على تحقيق معجزة خارقة، وهذا أكبر دليل على زيفه وكذبه، لتكون المحصلة أن الإسلام عقيدة ابتدعها محمد، وأنها دين الجَبر، والانحلال الأخلاقي، والعنف والقسوة والتساهل مع الملذات والشهوات. وتلك صورة مناقضة للمسيحية، التي رُسِمت على أنها ديانة الحقيقة والأخلاق الصارمة، وروح السلام، وأنها عقيدة تنتشر بالإقناع لا بحد السيف، بل زعموا أن محمدا أخذ الأقانيم الثلاثة من المسيحية، وتتضمن عبادة شخصه، مع إلهينِ وثنيين آخرينِ بأسماء يونانية، ويرد جورافسكي على الادعاء الأخير ساخرا من هكذا تصور، مقررا أن محمدا حارب الوثنية والأوثان أكثر من أي مخلوق، وحطم الأصنام حول الكعبة، فكيف يتحول في نظر المسيحيين إلى صنم يؤلهه أتباعه([24]). ولنكتشف أن الهدف من هذه التشويه إيجاد صورة مثالية عكسية عن المسيحية، وأنها دين الحق والتسامح والخلاص، ولن يصلوا إلى هذا، إلا بشيطنة محمد وأتباعه، وإلصاق كل نقيصة فيهم.

إن صورة محمد في الوعي الغربي متناقضة في تكوينها، ولكن الثابت فيها، أن محمدا هو مسيحي في الأساس أصلا ونسبا، وهاجر إلى الجزيرة ودعا لدينه الجديد المسروق من كتب المسيحية واليهودية، وحتى ما قيل عن كونه أصله عربيا، إلا أنه تعلم في جميع الأحوال على أيدي قساوسة مسيحيين، وذكروا أسماءهم وهي شخصيات حقيقية، دون النظر إلى مجموعة من الأسئلة التي يطرحها أي عقل واع يستقبل مثل هذه الصورة المتخيلة، وأبرزها: كيف يمكن للعرب في الجزيرة تصديق شخص غريب عنهم، ولا يعرفون أصله، ولا يتحدث بلغتهم؟ وكيف أجاد محمد العربية، التي صاغ بها قرآنا، أعجز العرب أن يأتوا بسورة أو آية مثله؟

والأدهى من كل ذلك أن كل من هرطق وادّعى كذبا كان بإمكانه الحصول على مصادر السيرة النبوية وكتبها أو سؤال العلماء المسلمين عنها بالرحيل إليهم، وكثير منهم عاشوا في مدن العالم الإسلامي، وحجّوا إلى المقدسات في فلسطين، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يتعرف كنه الإسلام وحقيقة الرسول من لدن المسلمين أنفسهم. وهذا في رأينا عائد إلى العداء الديني المتوارث، الناتج عن الصراع بين الإسلام والمسيحية، والعلاقات الشائكة بينهما، على نحو ما يطرح جورافسكي، الذي يقرر أن الشرق (الإسلامي) كان الدافع

[24]) الإسلام والمسيحية، مرجع سابق، ص64- 66.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

المحرض والدافع الدائم؛ الذي شكّل تحديا لأوروبا وطرح أفكارا جديدة وإشكاليات غريبة ومعقدة. وإن كان جورافسكي ينظر إليها في إطار أشمل، ألا وهو الإطار الحضاري والثقافي، عندما كانت الحضارة العربية الإسلامية في قمة عليائها، وكانت أوروبا واقعة تحت تأثيرها ثقافيا وفنيا، وإن ظل الصراع الديني قائما([25])، وقد كانت كل المواجهات العسكرية بين الغرب والشرق، ترفع شعارات دينية، فالمسلمون يرفعون شعار الجهاد، ضد الحرب المقدسة التي أعلنها المسيحيون خاصة إبان الحملات الصليبية التي استمرت زهاء قرنين، وكلاهما ينعت الآخر بالكفر، مما رسّخ في لاوعي أتباع الديانتين أن كلاً منهما على حق، كلٌ من وجهة نظرهم. وتنظر المسيحية إلى الإسلام على أنه سحب من تمددها في الشام شمال إفريقيا والأندلس، وهي المناطق الجنوبية أو النصف الثري للامبراطورية البيزنطية، ناهيك عن مكانة هذه الأقطار حضاريا وثقافيا، وتأثيرها الواسع في المحيط حولها؛ فكان من الطبيعي أن نجد في القرون الوسطى شخصيات انفعالية عاطفية في أوروبا، حرّضت الشعوب الأوروبية للانضمام إلى الحملات الصليبية، بخطاب ديني يُمنّيّ المسيحيين بالخيرات المادية في هذه الأراضي التي تدر لبنا وعسلا، وبالثواب الأخروى بتحريرها من الكفار، واستعادة الجسد المقدس لتحرير المقدسات المسيحية وإتاحة الحج للمسيحيين([26]).

فقد تم استثمار الصورة المشوهة لتكون وقودا للحروب الصليبية قديما، وأيضا في الاستعمار الغربي لأقطار العالم الإسلامي حديثا، في تضاد واضح مع المبادئ العلمانية التي رفعتها أوروبا في نهضتها وفي ادعاءاتها الحداثية، عن فصل الدين والدولة، وإقصاء الكنيسة داخل جدرانها، وهو ما ينقضه الواقع والممارسة السياسية، فالدين حاضر في السياسة الأوروبية والأمريكية والروسية، وهو ما يقر به سكوت هيبارد، عندما يتناول –على سبيل المثال– السياسة الأمريكية، وكيف أن الدين كان خاصية محورية لها، وعلى الرغم من وجود انفصال مؤسسي بين الكنيسة والدولة، وتحديدا الدين المسيحي البروتستانتي، الذي ظل متأصلا داخل القومية والثقافة الأمريكية، وكذلك الاعتقاد بأن الأمريكيين هم شعب الله المختار، بما لهم من قدَر فريد في العالم، مع ميل لربط الفكرة الديمقراطية بالعناية الإلهية، على الرغم من تنازع الرؤية العلمانية لهذا التوجه، فالدين المسيحي البروتستانتي كان سببا في تكوين قومية أكثر محدودية وعدوانية، مع توفير رواية مسيحية للتاريخ الأمريكي، يربط ما بين الغرض القومي وتنفيذ إرادة الله على الأرض، وهو ما يعكس

[25]) المرجع السابق، ص30.

[26]) المرجع السابق، ص32، 33.

التأييد الأعمى للسياسة الأمريكية للكيان الصهيوني، لأن القناعات الدينية البروتستانتية تمتزج مع التراث اليهودي، والمشروع القومي الصهيوني جزء من الاستراتيجية الأمريكية([27]).

فلا حجة لمن يجادل بأن السياسة في الغرب لا تقوم على أسس دينية، بل إن الدين أساسي فيها، والمشكلة أن الإسلام وتشويه صورة الرسول يعاد تفعيلها سياسيا، ويكفي ما قضية الرسوم المسيئة للرسول في فرنسا في النصف الثاني من العام 2020، وكيف كشفت عن حجم العنصرية والتعصب الديني في السياسة الفرنسية ضد المسلمين من ناحية، مثلما كشفت أن القضية لا ولن تنتهي، قد تهدأ بعض الوقت، ولكنها تشتعل من جديد، ولذا، فإن تقديم صورة الرسول الحقيقية والإبانة عنها يحتاج إلى زمن طويل، وجهد جهيد؛ وليس مجرد حملات إعلامية أو مقالات تعريفية؛ لأن المزاج الغربي العام، وإن تغلغلت فيه العلمانية، إلا أنه لم ينسَ المسيحية بكل تاريخها وصراعاتها مع العالم الإسلامي. وهذا ليس معناه أن الغرب كله على قلب واحد في العداء للإسلام، فهناك العادلون والمقسطون والمخلصون في حقوق الإنسان دون تفرقة بين لون أو دين أو عرق، فمن أبرز القيم الليبرالية أنها أعلت قيمة الإنسان، بوصفه إنسانا، وسعت إلى إماتة مختلف أشكال التعصب والتحقير، وهو ما يتفق مع الفطرة الإنسانية التي ينبغي تعزيزها وتقديم الإسلام من خلالها.

صورة الرسول في الاستشراق المبكر:

مع قدوم العصر الحديث بدءًا من القرن السابع عشر الميلادي، شرع المفكرون الغربيون في قراءة الإسلام وسيرة الرسول(ﷺ) في مصادرها الأصلية، أي في الكتابات العربية والإسلامية، وفي كتابات المؤرخين المسلمين، إلا أن المشكلة أنهم دخلوا بقناعاتهم السابقة، وهو ما يؤكده جورافيسكي، بأن رسول الإسلام عندما ظهر في أوائل القرن السابع الميلادي حمل معه إشكالية لاهوتية عميقة، في محيط أممي تميز بتأثره الروحي بالتقاليد اليهودية والمسيحية، فقد أكد الإسلام على التوحيدية الإبراهيمية (الحنفية السمحاء)، واضعا نفسه في خندق مضاد متعارض تماما مع مفاهيم الديانتين السماويتين الشائعتين، وذلك بترسيخ التوحيد الصافي النقي، ملغيا في حقيقة الأمر أي إمكان لتجسيد الطبيعة الإلهية، مع نفي تام لفكرة الثالوث المسيحية؛ ليحطّم التوجهُ العقائدي الإسلامي النظامَ البنيوي اللاهوتي، الذي كان مهيمنا في التصورات المسيحية في العصر الوسيط، حول التكوين الإلهي للتاريخ، وحول التقديس، وتجسيد الإله ذاته، وذلك هو

[27]) السياسة الدينية والدول العلمانية: مصر والهند والولايات المتحدة الأمريكية، سكوت هيبارد، ترجمة: الأمير سامح كريّم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2014، ص241، 242.

سبب التحدي الذي أبداه أتباع اليهودية والمسيحية ضد الإسلام، وما أحدثه من ثورة روحية وعقدية وتشريعية.

فقد جاء القرآن الكريم والسنة النبوية مشتملينِ على مختلف التصورات والسلوكيات والقيم الإسلامية التي يجب على المسلم اتباعها، مع الإحاطة الكاملة بتاريخ الرسول والديانات السابقة، مما أوجد ثقة لدى المسلمين في عقيدتهم ونهجهم الديني، وأنهم يعرفون المسيحية الحقيقية أفضل من المسيحيين أنفسهم، حيث يرى المسلمون أن أغلبية المسيحيين قد تردّوا في الضلال ولم يفهموا جوهرها، مشددين على تحريف الكتب السماوية من قبل الرهبان والقساوسة. وإن كان اللاهوتيون المسيحيون يرون أن العلماء المسلمين اكتفوا بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي مقولة يدحضها جورافيسكي بوصفه مستشرقا مطلعا على مؤلفات المسلمين، حيث يعطي أمثلة على كتب للمسلمين قديما تتضمن تعريفا وعرضا موثقا للعقائد جميعها: السماوية والوضعية، ومنها المسيحية، واليهودية، ولكن الأمر اللافت الذي يشهد به جورافيسكي، أن المسلمين لم يتعاملوا مع المسيحيين بوصفهم أعداء؛ على الرغم مما فعله الصليبيون من مجازر في حملاتهم على بلاد الشام، وإنما تعامل المسلمون مع هذه الحملات على أنها هجمات عدائية، وصراعات حدودية، ولم تتغير تبعا لذلك نظرة المسلمين للمسيحية، فهو موقف هادئ، إن لم يكن غير مبال، يضع الأمور في نصابها، بعكس التعصب والعنصرية اللذين ظهرا لدى الأوروبيين منذ القدم، وإلى يومنا([28]).

خرج ذلك النقاش الهادئ من مستشرق محايد يقرأ العلاقة بين المسيحية والإسلام قراءة موضوعية، ضمن استراتيجية اعتمدها في كتابه، لا تقدّم مقارنة بين الإسلام والمسيحية بوصفهما ديانتين على نحو ما يشير عنوان الكتاب؛ إنما المقصود بالإسلام أو المسيحية هم المؤمنون بهما، فالعلاقة هي علاقة بين البشر، وفق فهمهم وتعاطيهم مع الديانتين السماويتين، ووفق منطق الصراع الذي دار بينهما، طيلة قرون، متخذا أشكالا عديدة، فدلالة عنوان كتابه هي العلاقة بين المسلمين والمسيحيين على امتداد التاريخ: جوهر الصراع وأبعاده ومسبباته والمفاهيم الملتبسة.

وبالعودة إلى ما أشار إليه جورافيسكي عاليا، نرصد أن المسلمين إبان الحروب الصليبية تعاملوا بروح الإسلام التي تأمرهم باحترام المسيحية واليهودية ورسلهما، بدون الحط من شأنهما، فهذا جزء من العقيدة الإسلامية، فالمسلمون يؤمنون بالديانات والرسل والأنبياء السابقين جميعهم، بعكس المسيحيين واليهود الذين ينكرون في الأساس الإسلام ورسوله. وهذا لب منظور المستشرقين عندما اطلعوا على المصادر العربية والإسلامية، وكانت البداية من أجل الدفاع بمنطق علمي ضد مناقشات المسلمين، ومن أجل تخريج مجادلين

[28]) الإسلام والمسيحية، مرجع سابق، ص36، 37.

من المسيحيين للرد على فقهاء المسلمين، خاصة في البلدان التي سيطر عليها المسلمون، وتسربت الدعوة للإسلام منها إلى أنحاء مختلفة في أوروبا، فكان لابد أن ينتدب الفاتيكان عددا من القساوسة لتعلم العربية، والاطلاع على الكتب العربية والإفادة منها في الرد على الدعاة المسلمين، وبدأ ذلك بشكل منظم في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، فأوجب الفاتيكان على القساوسة تعلم العربية، واللغات الشرقية، فيما يسمى الاستشراق الرسمي، الذي جاء قطعا بعد جهود فردية متناثرة في حقب سابقة([29]).

إن لفظة مستشرق Orientalist، لم تظهر إلا في نهاية القرن الثامن عشر، في كل من إنجلترا وفرنسا، ثم تبعه مصطلح الاستشراق Orientalism في قاموس الأكاديمية الفرنسية العام 1838، وأخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق، بعدما أدرك العلماء في الغرب أنه لا يمكن دراسة الشرق إلا بعد الاطلاع على النصوص الأصلية، التي تحتاج بدورها إلى معرفة عميقة باللغات الأصلية، وهو عمل واسع جدا، يقتضي تحقيق النصوص وترجمتها ونشرها، وكذلك وضع المعاجم وكتب القواعد المخطط لها، بطريقة علمية وشرح التاريخ السردي([30]).

وهو ما يعبر عن تطور على المستوى الرسمي والحكومي بشأن توفير سبل الدعم للمستشرقين ومعاهدهم ومدارسهم، وتطور أيضا في المنهجية الغربية في النظر إلى الإسلام، وعلى قدر ما في هذه الأعمال من جهود عظيمة، إلا أن النسق الذي تمت فيه، يستدعي الوقوف عنده، فلم يكن هذا الجهد الهائل، بمدارسه وعلمائه ومستشرقيه ومجلاته وكتبه ومنشوراته، لوجه العلم في غالب الأحوال، خاصة في القرن التاسع عشر، حيث كان الشرق الإسلامي لا يزال عدوا، بحكم وجود المسألة الشرقية (الدولة العثمانية)، ولكنه عدو محكوم عليه بالهزيمة، وسعت الدول الغربية الاستعمارية إلى التعجيل في انهيارها، فكان لابد من تقديم صورة تتفق مع المزاج الغربي ونظرته المتعالية والعدائية ضد الإسلام، وكي تبرر أيضا وتمهد احتلال البلدان الإسلامية، فقُدِّم الشرق في لوحات الفنانين المستشرقين الذين رحلوا إلى بلدان المسلمين بصخب في الألوان، وتصوير المسلمين على أنهم يعيشون في ترف وضراوة ووحشية، وعرض حريم السلطان وسراياه، ورؤوس مقطوعة، ونساء توضع في أكياس، وترمى في البوسفور (إشارة إلى الدولة العثمانية) ومحظيات (جواري) وخصيان، ونساء أسيرات يخضعن لشهوة المنتصر، مع تعاظم التمركز الأوروبي حول الذات، وتخيلهم أن هناك تميزا نوعيا لهم في اللون والحضارة والثقافة، خاصة مع التقدم الاقتصادي والعسكري

---

[29]) موسوعة المستشرقين، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، 1964، ج1، ص114- 116.

[30]) تراث الإسلام، شاخت، وبوزورث، مرجع سابق، ج1، ص73، 74.

والتقني، واتخاذهم نموذجا يحتذى([31])، فتلك هي الصورة التي بحث عنها الفنانون والرحالة المستشرقون، لتكون خطابا مجهّلا للشعوب الغربية عن الإسلام.

أما صورة الرسول (ﷺ)، فبدءا من القرن السابع عشر، ظهر جيل جديد من المؤرخين والمفكرين الغربيين، الذين اطلعوا على المصادر الإسلامية في تقديم كتاباتهم عن الرسول محمد، ضمن قراءة لتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده، وقد تم ذلك على أيدي المستشرق الألماني هوتنجر (1653)، في كتابه "تاريخ الشرقيين والآثار الشرقية"، ساعيا إلى تقديم الظروف التاريخية التي ساعدت على ظهور دين محمد، واستعرض المذاهب الإسلامية المختلفة، وحياة المسلمين، بنبرة خفيفة –نوعا ما– في العداء، وكان الهدف من كتابه الهجوم على المذهب الإصلاحي البروتستانتي، في صراعه مع الكاثوليك، حيث اتهم البروتستانت أنهم استعاروا مذهبهم من الإسلام، وأنها صورة من المنظومة العقائدية الإسلامية. أي أن الكتاب –في رأينا– كان أشبه بالقناع الذي ينتقد فيه البروتستانت، من خلال المقارنة مع الإسلام الذي عرضه تفصيلا، وقد رأى بعض منتقدي الكتاب أن هوتنجر أفسد دين المسيح، عندما دعا الشباب إلى قراءة دين المحمديين، وكان معاصره المستشرق بيلياندر قد هاجم الإسلام في كتابه ذائع الصيت وعنوانه "دحض القرآن"، والذي وجد مساحة من القبول واسعة، مما دفع هوتنجر إلى مواصلة الهجوم على محمد، ناعتًا إياه بالنبي الكاذب، كلما أتى على ذكره في الكتاب، وكأنه يحمي نفسه من أي رد فعل عكسي من قبل القراء الأوروبيين، وتعمد وصف دولة المسلمين بأنها "حكم الأتراك"، في اتساق مع التهديد الذي كانت تعيش فيه أوروبا من الدولة العثمانية الإسلامية([32])، فما امتاز به جهد هوتنجر هو العرض المفصل لتاريخ الأمة الإسلامية، وتقديم حياة محمد بإيجاز، وهو ما نراه تطورا محدودا، وإن ظل ينظر له على أنه النبي الكاذب، الأقرب إلى الزعيم أو الملك السياسي المحنك، واللافت في الأمر هو محاولة المستشرقين أن يتخلصوا تدريجيا من المعلومات الكاذبة التي تقال جزافا دون دليل، والاستفادة من المصادر الإسلامية، وقد تم الأمر في دائرة العرض التاريخي، لاكتساب مزيد من المصداقية والعلمية، وليس الإقرار الديني بنبوة محمد، أو تقديم صورة مثلى له فهذا يضاد الصورة المرسومة والموروثة في أوروبا.

وهو ما يؤكده عبد الرحمن بدوي، حين يقف مفصلا أمام كتب هوتنجر، ويرى أن أسطورة محمد الراسخة في أوروبا لمدة سبعة قرون، بدأت في التراجع لصالح العودة إلى المصادر التاريخية الإسلامية، ويُحسَب لهوتنجر أنه بدأ في التشكيك في استعانة محمد بالراهب بحيرا والتي اتخذها الكتّاب الأوروبيون محطة لبناء

[31]) المرجع السابق، ج1، ص75. وأيضا ص78، 79.

[32]) دفاع عن محمد ضد المنتقصين منه، مرجع سابق، ص24، 25.

أساطير عن استعارة محمد بالمسيحية في دينه الجديد. كما ناقش هوتنجر الدعاوى المفصلة حول معجزات محمد، ونفاها، وأثبت له معجزة القرآن فقط، وفي المجمل فإن هوتنجر لم يشذ كثيرا في منظوره إلى محمد عن النظرة الكنسية الغربية له([33]).

وقد جاء بعد هوتنجر مؤرخ يدعى هامفري بريدو(1648-1724)، ونشر كتابا اختص بسيرة الرسول عنوّنه بـ"حياة محمد المخادع"، حاول فيه الاستفادة من جهود هوتنجر بالعودة إلى المصادر التاريخية، وتقديم كتابة تاريخية موثقة كما زعم عن محمد، دون خلط التاريخ بالأحكام العاطفية، أو الأحكام المسبقة، التي انتشرت من قبل المشككين في هذا المنهج، لتكون سيرة الرسول وفقا للمصادر العربية والإسلامية التي اطلع عليها، وأثبتها في نهاية الكتاب، وسخر في بداية كتابه من الأكاذيب التي يتداولها المسيحيون البسطاء عن محمد، وهم يجهلون الحقائق الكبرى عنه. فقد أكد على سعيه إلى تقديم غاية عاقلة ومسيحية عن حياة ذلك الكاذب المسمى محمد. ولأن بريدو لم يكن ساعيا إلى الانتصار للحقيقة في مجمل كتابه، فقد وضحت نيته في عنوان الكتاب، فظاهرُ منهجيتِه الموضوعية، والاستعانة بمراجع عربية، وباطنها هو مزيد من الطعن في شخصية محمد، فلا قيمة لما ساقه عن الموضوعية التاريخية، فقد أعاد إنتاج الأساطير الغربية المتوارثة عن الرسول، ودعّمها بأن محمدا اعتمد على اليهود في صياغة شريعته، مستشهدا بريدو بما ذاكره الراهب ريشار في كتابه دحض شريعة محمد، والذي زعم أن يهوديا فارسيا يدعى ابن سالون، وقد عُرِف في المراجع الإسلامية باسم عبد الله بن سلام؛ هو الذي علّم محمدا الذي كان جاهلا، ثم يسقط في الخلط بين ابن سلام وبين سلمان الفارسي، مزركشًا القصة حتى تبدو صحيحة، ويعمق أكثر من أسطورة بحيرا، فيروي أن بحيرا قدم من الشام، واستقبله محمد استقبالا حافلا، وأكرمه بالهدايا، خشية أن يفضح سر محمد. كما ادعى أن كعب بن زهير الشاعر الذي مدح الرسول بقصيدة شهيرة، مطلعها بانت سعاد فقلبي اليوم متبول..؛ إنما هو يهودي، وكان صديقا لمحمد، وساعده في صياغة القرآن، الذي يتشابه في نظر بريدو مع شعر كعب، وذكر أن مرجعه في هذه المعلومة عائد إلى كتاب المكين([34]) لأبي الفرج بن العبري(1243-1286) وهو مؤرخ لاهوتي سرياني، وذهب البعض إلا أن أصله يهودي، عاش ما بين أنطاكية والعراق، ودفن في دير بالموصل. فما استند عليه بريدو لا يعتد به تاريخيا، خاصة أنه صادر عن راهب مسيحي معتّق في مؤلفاته عن المسيحية، وفي هجومه على الإسلام، وما المعلومات الخطأ التي أوردها

---

[33]) المرجع السابق، ص28- 30.

[34]) المرجع السابق، انظر الصفحات: 32- 37.

إلا دلالة على عدم فهمه للسيرة النبوية، وأن عودته المزعومة إلى المصادر الإسلامية كانت أشبه بالحلية أو القناع، الذي سقط في نهاية كتابه مسفرا عن وجه قبيح.

ومن المفارقات في كتاب بريدو أنه اضطر إلى الاعتراف بكل أسى كما ذكر في نهاية الكتاب؛ بالصفات السامية لمحمد وبعظمة أعماله، وأقرّ بشجاعته وفطنة عقله، وعدم غروره بانتصاراته، وبدرجة عالية من المجد، مما أغراه أن يكون له مكان بين أعظم الثوار، الذين عرفهم العالم، وقد أنشأ امبراطورية في أربع وعشرين عاما(لعله يقصد الخلفاء من بعده)، امتدت لتشمل المناطق التي احتلتها الامبراطورية الرومانية لمدة خمسمائة عام، بل وأكثر من ذلك، واستمرت تلك المملكة الواسعة لقرون عديدة، وهي في أوج عظمتها.. بينما تعاق بالمصائب والفوضى المسيحيةُ([35]).

إن ما طرحه بريدو في كتابه لم يخرج كثيرا عما هو دارج شعبيا في الغرب، واعتمد في المرويات العربية التي أوردها على ما سجله المؤرخون العرب اليهود أو المسيحيون، فعمّق الأكاذيب السابقة وزاد عليها. أما اعترافه بفضل محمد وإنجازات المسلمين الهائلة، فهي من باب التقدير للمنجز البشري المتحقق الذي أدخل في التاريخ محمدا والدولة الإسلامية بعده، فكأنه يقيّم زعيما دنيويا وليس نبيا مرسلا.

لقد وظّفت أدبيا صورة محمد المشوهة في المتخيل الغربي في القرن الثامن عشر عندما نشر الأديب الفرنسي الشهير فولتير (1694- 1778) -الذي يُعَد قطب عصر التنوير- روايته المسرحية المأساوية وعنوانها "محمد أو التعصب"، وعرض فيها شخصية محمد؛ مشبِّهًا إياه بشخصية تارتوف المنافق، الذي يمسك بسلاحه ويتعطش للدماء، وتحرّكه الشهوات الجنسية، وكان فولتير مدركا تمام الإدراك أن تصوره عن محمد هو محض خيال، ولكنه كان متناغما مع الانطباع السائد في المجتمع عن الرسول، والذي يُغذيه التعصب الديني المقيت. ولكنه أراد أن يتخذ من صورة الرسول وسيلة للهجوم على الكنيسة، على طريقة "إياكِ أعني، واسمعي يا جارة"، فقد كان محاربا للمسيحية الكاثوليكية، وضد التضليل الكهنوتي، وضد الخرافات، بل ضد الدين ذاته. وقد مُثّلت المسرحية في مدينة ليل الفرنسية عام 1741. ثم أعادت تقديمها فرقة الكوميدي فرانسيز في باريس عام 1842، ولكن السفير التركي في فرنسا احتج، وعقد مؤتمرا دعا إليه كتّاب فرنسا الأحرار، وهاجم المسرحية بشدة، فاضطرت الحكومة إلى وقفها. والغريب أن فولتير نفسه، كتب مقالا من قبل عن الرسول محمد نعته فيه بأنه الرجل العظيم الذي جمع في شخصه بين الفاتح والمشرّع

[35]) المرجع السابق، ص38، 39.

والحاكم والكاهن، والذي لعب أعظم الأدوار يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض([36]). ومن خلال هذه الإشارة ندرك ما ترسخ في الوعي الشعبي الغربي نحو الرسول الأعظم، والجهل الفاضح الذي كان عليه الفيلسوف والأديب فولتير نحو ديانة كبيرة مثل الإسلام ونبيها العظيم، وحتى ما سطّره في مقاله المشار إليه، لا يعدو أن يكون إعجابا – ربما بعد اطلاعات بسيطة- بالنبي، وكانت نظرته إلى الرسول كزعيم حقق إنجازات كبرى، بزعامة أتباعه، وقيادتهم لتأسيس دولة كبرى، وأيضا بكونه مشرّعا وحاكما في دولته، نافيًا بشكل ضمني فكرة كونه نبيا، متسقا مع الانطباع الكنسي العام، وفي جميع الأحوال فإن هذا متوقع من فولتير الفيلسوف التنويري علماني الفكر، والذي يقيس الأمور والشخصيات بمقاييس بشرية، تنظر للإنجاز والعطاء والخلود في التاريخ، وتستبعد الروحانيات الدينية.

الاستشراق المتأخر وإعادة إنتاج صورة الرسول:

منذ القرن التاسع عشر، وإلى منتصف القرن العشرين، كان هناك إنتاج علمي استشراقي هائل، زاد عن ستين ألف كتاب عن الإسلام والمسلمين([37])، وحدث تحول في الدراسات الاستشراقية، مما أنتج ما يسميه جورافيسكي "علم الإسلاميات" الذي نشأ في أحشاء المخططات الاستعمارية، وارتفاع الأصوات المنادية باستعادة الأراضي المقدسة من أيدي مغتصبيها المسلمين، (وهي نفس دعوات الحروب الصليبية)، حيث تبين للدوائر الاستعمارية الغربية أن القوة العسكرية والتفوق الاقتصادي والتقدم العلمي في الغرب ليس كافيا لبسط السيطرة على العالم الإسلامي. وانطلق المستشرقون الجدد من فرضية قوامها تفكيك الأساطير والمرويات الكاذبة والخرافات عن الإسلام والمسلمين والرسول، والمتداولة منذ القرون الوسطى، وتفعيل المناهج العلمية الرصينة في دراسة علوم العالم الإسلامي، وتكونت المدارس والمعاهد والكراسي العلمية لدراسة اللغات الشرقية، وتحقيق الكتب الإسلامية، والعناية بنشرها، ولكن يشير جورافيسكي فإن كل هذه الجهود لم تقدم جديدا بشأن النظرة إلى الإسلام، فقد أضفت فقط صبغة علمية على الأضاليل القديمة، وأعادت صياغة القوالب والخرافات النمطية الغربية والعتيقة عن الإسلام، فأي باحث موضوعي يلاحظ أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحا مباشرا وعنيفا، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه

[36]) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، للمستشرق الألماني جوستاف بفانموللر، ترجمة: محمود حمدي زقزوق، مجلة مركز البحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، مج2، ع2، 1987، ص85.

[37]) المرجع السابق، ص110.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

الشعوب الإسلامية. فقد تشكلت صورة مزدوجة عن الإسلام في الوعي الاجتماعي الأوروبي عن الإسلام، (كلاهما يخدم الإيديولوجيا الاستعمارية)، فالإسلام تهديد مباشر للمصالح الغربية دولا وأفرادا، من خلال الوحدة الإسلامية، وما تشكله من تهديدات من خلال فكرة الجامعة الإسلامية، بوصف المسلمين بأنهم متعصبون برابرة، ومعادون لرسالة أوروبا التحضريّة الإنسانية الكونية، ومن جهة أخرى رأت الدوائر الاستعمارية الاستراتيجية أن في الإسلام دين استقرار، وعامل تثبيت، يمكن الاستفادة منه في إطار طاعة الحكام، والمحافظة على السلطات الصديقة([38]).

وبذلك أصبحت هناك تفسيرات أخرى للإسلام يمكن توظيفها بما يخدم الأجندة الاستعمارية، والأنظمة السلطوية الحاكمة في أقطار العالم الإسلامي، والموالية للغرب الاستعماري، فبدلا من الهجوم الكاسح على الإسلام، يمكن أن يتم تبني خطاب إسلامي مهادن، يؤدي لاستكانة الشعوب الإسلامية، بإغراقها في الروحانيات، بنشر الخطاب الصوفي، وإبعاد الخطاب الجهادي والمقاوم والوحدوي، ولا بأس من الغزو الفكري التغريبي المتمثل في نشر أفكار القومية التجزيئية، لمواجهة خطاب الجامعة الإسلامية بين الشعوب الإسلامية ذات الأعراق المختلفة، وأيضا دعم سياسات الدولة القطرية، والأهم من ذلك مواصلة ربط تخلف العالم الإسلامي بالإسلام نفسه، والدعوة لقراءات نقدية (هجومية) للتراث الإسلامي، وقراءة التاريخ السياسي للإسلام وفق الرؤية الغربية، باستخدام مصطلحات مثل الحكومة الثيوقراطية (الدينية)، والسلفية الارتدادية، والخرافة والغيب الديني، والغيبوية الحضارية، وكلها تمتاح من الفكر الغربي العلماني، وتراهن على إقصاء الإسلام عن الحياة والحكم، والتمترس وراء الدولة الحديثة بمرجعيتها الإدارية والسياسية العلمانية الغربية([39])، والمناداة بالانطلاق من التراث اليوناني بوصفه تراثا عقلانيا، لا غيبيا، بل وظهرت قراءات عديدة للتراث الإسلامي تقيسه وفق العقل الفلسفي اليوناني، والادعاء أن الحضارة الإسلامية لم تزدهر إلا باتصال المسلمين مع الفلسفة اليونانية([40])، بما يعني ببساطة ترك الإسلام، والتخلص من تراثه، والركض وراء الحضارة الغربية، على أن يكون شأن الإسلام مثل المسيحية –في المجتمعات الأوروبية العلمانية– مجرد علاقة روحية فردية، وتُترك أمور الدنيا لاجتهادات البشر ورغباتهم وأعرافهم. وعلينا الانتباه أن الغاية الأساسية المرادة من هذه الدعوات والأفكار هي نزع الهوية الإسلامية عن المجتمعات العربية والإسلامية، والنظر باحتقار إلى كل رموز الإسلام، وتاريخه، وعظمائه؛ وساعتها ستصبح نفسية المسلم طيعة للاستلاب

---

[38]) الإسلام والمسيحية، ص89- 91.

[39]) الإسلام والغرب: دراسة في قضايا الفكر المعاصر، محمد الخير عبد القادر، دار الجيل، بيروت، والدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط1، 1991، ص125- 127.

[40]) المرجع السابق، ص139 – 145.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

النفسي ثم الانسلاخ الحضاري، بل هي قابلة لأي تشكيل فكري، وستكون –دون شك– مرحّبة بالتغريب الذي يعني قبول الاستعمار الغربي باحتلال مباشر، أو النظم السلطوية التابعة له. وقد بدأ هذا التوجه مع حركة الاستشراق المتأخر، التي رافقت جيوش المستعمر، واستطاعت إيجاد أتباع لها ونخب ثقافية وعلمية وفكرية، تروّج لخطاباتها، وتتبنى أطروحاتها، بل وتقاتل من أجلها.

تلك هي الرؤية الاستشراقية الجديدة، التي دعّمتها الأقلام العربية، فقد قرأوا الإسلام في مصادره الأصلية، ولكنها قراءات ذات أغراض سياسية، تخدم السياسة الاستعمارية، وتدعم النظم السلطوية التي تسلمت الحكم من المستعمر، وواصلت نفس سياساته الثقافية بعضها بعلمانية استبدادية فجة، وبعضها الآخر مستترة.

وقد انعكس هذا الموقف على صورة الرسول في العقل الاستشراقي المتأخر، والذي لم يحدث فيها أي تغيير إيجابي جوهري، وكما يشير زقزوق فإن كثيرا من المستشرقين الذين ألّفوا في سيرة محمد، وضعوا لأنفسهم تصورا ينطلق من أنه ليس نبيا حقيقيا، وأن الإسلام ليس دينا سماويا. وتفاوتت رؤاهم في ذلك، فهذا اشبرنجر (1813–1893) يعلن أن دوره كمؤلف أن يكون ممثل اتهام في قراءته لشخصية محمد، فيجمع في الرسول كل مظاهر الضعف الإنساني والشهوات، وينعته بأنه إنسان هستيري. أما أوجست موللر (1848– 1892) فيرى أن محمدا كان يتعرض لحالات انفعال شديدة، تصل به إلى درجة الهلوسة، وهي ليست مجرد حالة صرعية، وإنما هي انفعالات للأشخاص ذوي الحس المرهف (يقصد الوحي)، وأن محمدا لم يدرك إلا جانبا واحدا من الطبيعة الإلهية، فلا يمكن إسباغ وصف القداسة عليه، ولذا فلم يمتلك نظاما متكاملا للأخلاق. وعندما هاجر إلى المدينة، حوّل دينه إلى سياسة، مستعينا بالكذب وتزييف الحقائق في البداية دون وعي لما يفعل، ثم بنصف وعي، ثم بوعي كامل. وينحى منحى مختلفا المستشرق الألماني هوبرت جريمه (1864– 1942) في كتبه العديدة عن محمد؛ فيقرر أن محمدا في بداية دعوته لم يدع لدين مطلقا، وإنما إلى شكل من أشكال الاشتراكية، ليواجه ما كان سائدا من أوضاع مهينة وسيئة بسبب التناقض بين الأغنياء والفقراء في مكة، من خلال الدعوة إلى دفع ضريبة للمحتاجين، فلما لم يجد آذانا صاغية، راح يهدد الناس بيوم الحساب كوسيلة إجبارية روحية. وبعد هجرته إلى المدينة تحول إلى دجال ومثير للفتن، وسياسي ذكي كبير([41])، وهو ما دفع المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هرجرونيه (1857–1936)، والذي كان مستشارا للإدارة الاستعمارية الهولندية في الهند الشرقية (إندونيسيا)؛ إلى الرد على ما سبق حول شخصية محمد، وذلك في دراسة مطولة له بمجلة تاريخ الأديان، حيث يشير إلى

[41]) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص112، 138، 143، 144، 145.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

أن الكتّاب الغربيين عن سيرة محمد، شعروا أن محمدا احتاج إلى أن يقدّم دينا إلى قومه، وتلك كانت وسيلته للوصول إلى الزعامة والسلطة، ويعارض هرجرونيه ما ذهب إليه موير بأن الشيطان تجسّد لمحمد في صورة رسول إلهي، كما يرفض هرجرونيه بأن الهستيرية خدمت محمدا، ليقنع قومه بأنه رسول. ولذا، يقرر هرجرونيه بكل ثقة، وبعدما ناقش عددا من سبقه من المستشرقين؛ يقرر أن محمدا أخذ أفكاره الرئيسية – مع تغييرات في شكلها– من المسيحية واليهودية، فمن ينظر في تفاصيل ما نادى به، يجد أنه تارة يميل إلى المسيحية، وتارة إلى اليهودية، وتارة ثالثة يبدي أمورا متنوعة من خيال خصب وحر نسبيا، ولكن على أساس يهودي مسيحي. إلا أن هرجرونيه يرى أن محمدا افتقد كثيرا من المعلومات عن المسيحية واليهودية، لأنه كان أميا جاهلا، فلم يعرف الكتاب المقدس، ولم يفهم علم العقيدة الأرثوذكسية، بل عرف فقط الأدب والتراث المشكوك في صحته لهذه الديانتين؛ فما نقله عنهما من أتباعهما كان من حواراته مع من لقيه في الجزيرة العربية من يهود أو نصارى. ويأخذ على محمد أنه لم يفرق بين النصوص التي يرددها المسيحيون واليهود في صلواتهم، وبين الكتاب المقدس، فظن أنها إلهية، وهي كانت إنسانية المصدر. أما رسالة محمد، والوحي الذي كان يتنزل عليه، فهو ناتج عن فكرة صاغها هرجرونيه بأن الأنبياء السابقين كانوا شخصيات مصطفاة (مختارة) من أقوامهم، وقد ظن محمد في نفسه هذه الفكرة، وتوهم أن المسيحيين واليهود الحقيقيين سيعترفون بديانته عندما يقابلونه، ولكن هذا لم يحدث. كما يرفض الزعم بأن ديانة محمد استندت إلى ديانة الحنفية الإبراهيمية (جماعة الحنفاء). أما الدافع الأساسي لمحمد في دعوته، فهي فكرة التخويف بيوم الحساب، والثواب والعقاب، التي استقاها من المسيحية واليهودية، وقد اتخذها وسيلة للسيطرة على أتباعه المسلمين، وإخافتهم، ليسهل قيادهم، وأورد في ذلك الآيات القرآنية المخيفة عن عذاب النار، والآيات الواصفة لنعيم الجنة. أما دعوة التوحيد فقد استخدمها محمد ضد وثنية أهل مكة. وبالطبع فإن المسيحيين واليهود عرفوا يقينية الحساب من خلال أنبيائهم، وهو ما أخذه محمد، مع تعميقه لهذا الفكرة لمزيد من السيطرة على أتباعه، كما أوجب على المسلمين الضريبة (الزكاة)، التي استخدمها لتمويل حملاته الحربية، ثم أضحت الضريبة أساسا ثابتا منذ عهد أبي بكر، ليتم استثمارها في الهجوم على البلدان. أما فكرة البر والإحسان التي نادى بها محمد، فهي متجذرة في اليهودية والمسيحية، وأخذها محمد لينشرها بين أتباعه بدعوة أقرب إلى الاشتراكية عندما كان في مكة، ولكن عندما ذهب إلى المدينة المنورة، دفع أتباعه إلى الهجمات الحربية (الغزوات) من أجل نهب أموال أغنياء أهل مكة، وتحقيق الثراء للمسلمين من خلال هذا السلب وقطع الطريق([42]).

[42]) المرجع السابق، ص146- 154.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

أما المستشرق الشهير ديفيد صمويل مرجليوث (1858- 1940)، فهو أستاذ للغة العربية في جامعة أكسفورد، وعمل فترة قسا في إحدى كنائس إنجلترا، وقد توقف عند ظاهرة الوحي عند الرسول محمد، وراح يفسرها وفق ما أسماه المنهجية الحديثة في المذهب الروحي والمذهب المورموني، ليخلص في النهاية إلى أن محمدا دجال، ومعدوم الضمير، وسياسي يخدع الآخرين بشعوذاته، دون أدنى فرصة له ليفهم أخلاق الرسول وقيمه وهديه، وإنما كان أشد ضراوة وعنفا في هجومه من سابقيه([43]).

إن كل من هرجرونيه ومرجليوث تفاخرا بالموضوعية العلمية؛ لنكتشف في النهاية أنهما ينطلقان من النسق الثقافي العام في الفكر الغربي، الذي ينظر إلى الإسلام وإلى محمد من منظور يكاد يكون واحدا، وهو أن الإسلام دين صنعه محمد، وقد أخذه من شخصيات يهودية ونصرانية قابلها في حياته، وما دعوته إلا ترجمة لدواعٍ قومية وشخصية، تتمثل في رغبة محمد في الزعامة، وتحقيق الشهرة والسلطة وتأسيس دولة، أما اطلاعهم على المصادر العربية والإسلامية في لغتها العربية فقد جاء لإضفاء المزيد من التوثيق، ونفس الأمر مع المناهج الحديثة التي كانت وسيلة لعلمية وموضوعية زائفة، لأن النتائج -في صورتها المجملة- متشابهة.

[43]) المرجع السابق، ص157، 158.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

خاتمة الفصل: يمكن أن نصل في ختام هذا الفصل إلى جملة نتائج:

أولاً: شتان ما بين الصورة الحقيقية التاريخية الناصعة لنبي الإسلام، وبين الصورة التي ظهر بها في كتابات المؤرخين الغربيين، على امتداد أكثر من عشرة قرون، والتي فيها من الظلم والتجني والأكاذيب ما لا يمكن حصره ولا تصديقه عقلا ونقلاً.

ثانياً: لا يمكن فهم صورة الرسول في الغرب إلا في إطار الأنساق الثقافية التي ظهرت فيها، وهي تشمل أنساقا ثقافية دينية مغلقة على فهم كهنوتي لا يعتد بأي مرجعية إسلامية، مثلما بدا في تصورات شعبوية وكهنوتية، تنظر إلى الرسول بوصفه مسيحيا متمردا وهاربا من الكنيسة الرومانية، في روما أو الإسكندرية، أو أنه تعلّم على أيدي رهبان، أبرزهم بحيرا الراهب في الشام، الذي نُسِجت حوله أساطير كثيرة، ثم تطورت إلى ادعاء أن محمدا تعلم من يهود، أمثال عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي وغير ذلك. وكلها تصب في خانة إرضاء الشعوب المسيحية في الغرب، وتكوين سياج حول المسيحية الغربية، تجعلها خاتمة الديانات قاطبة، وتنفي أية نبوة لمحمد، وتشيطنه في العقلية الجمعية الغربية، بوصفه بأبشع الأوصاف.

ثالثا: ارتباطا بالنقطة السابقة، هناك أنساق ثقافية مفتوحة، تتمثل في انفتاح بعض الكتّاب الغربيين على المصادر الإسلامية والعربية، واطلاعهم على سيرة محمد فيها، ولكنهم قرأوها وفق القناعات الغربية عنه، التي لا تنظر إليه بوصفه نبيا، وإنما هو دعيٌ كذاب محتال، تعلّم من الرهبان المسيحيين واليهود، وشكّل دينه من الكتب القديمة، مع الإقرار بعظمة ما حققه في حياته، وفي الامبراطورية الهائلة التي أقامها المسلمون من بعده، بجانب عظمة قيادته وذكائه، وحب أتباعه له.

رابعا: تحول محمد إلى علامة سميائية في المتخيل الغربي، فإذا ذكر اسمه؛ دلَّ على ديانة هرطقة وكفر، ودموية وشهوات، وكراهية وحقد على المسيحيين، وأن دينه انتشر بحد السيف، وأرغم المسلمون المسيحيين على اعتناق الإسلام بالقهر والتسلط.

خامسا: إن ظاهرة الإسلاموفوبيا تضرب بجذورها في التاريخ الغربي، تمتاح من المتخيل الشعبي من ناحية، وتُغذّيها كتابات أكاديمية واستشراقية وكنسية من ناحية ثانية، وقد تم استثمارها قديما في الحروب الصليبية، وحديثا في الاستعمار الغربي للأقطار الإسلامية، وكذلك في ادعاءات وخطط اليمين المتطرف في أوروبا وأمريكا.

الفصل الثاني

تصحيح صورة الرسول (ﷺ)

تفنيد الأسس وهدم القناعات.

صورة الرسول وإشكالية التحيز:

خضعت صورة الرسول(ﷺ) في الوجدان الغربي بشكل عام لتحيز واضح ومتعمد، فالأمر متعلق بصراع وجودي، له أسبابه الدينية العقائدية، التي لا يمكن أن يعالج في فترة قصيرة ولا بردود عديدة؛ خاصة إذا كانت ناتجة عن تراكمات تاريخية امتدت لقرون طويلة، امتزجت فيها الصراعات العسكرية الدموية، مع الأطماع السياسية، المتسربلة بالشعارات الدينية، وعندما تحضر المشاعر الدينية، وتتملك الذات الفردية والجمعية، فلا مجال لأي حوار عقلاني أو معرفي بشكل مستقل، حيث تتعاظم الغوغائية، وتحتد الألسنة، فقد انتقل الحوار من مجالات البحث العلمي النزيه، إلى مجال الشعبوية، وخطاب العامة، الذي يحشد الجماهير، دون النظر في عاقبة الأمور، وهذا ما نراه في الخطاب الشعبوي لدى اليمين الديني المحافظ في العالم الغربي، والذي تضيع معه أية إمكانية لتصحيح الصورة، فإذا كانت النخبة العلمية والسياسية والإعلامية هي القائدة والمرشدة والمشعلة لمثل هذه الخطابات، فما بالنا بأحوال العامة، الذين تسيّرهم لافتات مرفوعة، وتخيف نفوسهم شعارات موضوعة!

"إن "التحيز الديني" أخطر أشكال التحيز على الإطلاق، لأن منشأه تعمدٌ مغلوط لتشويه صورة الشعوب الأخرى بعمومها، والديانات بخصوصها([44])، وهذا النوع من التحيز لا يكون في الانطباعات الفردية فقط، وإنما يتعداه إلى عموم الشعب، عندما يتحول الأمر إلى دوجماطيقية شعورية ولا شعورية، تتملك الفرد، وتصبح يقينا عنده، مثلما تتملك المجموع/ الجماعة/ الشعب، وتصبح من المسلمات لديهم، وتلك آفة الآفات، والتي ستنعكس بدورها على ما يسمى "التحيز اللفظي" وهو تلك المصطلحات والألفاظ

[44])التحيز في الأنظمة الغربية لتصنيف المكتبات، د. هاني محيي الدين عطية، في الكتاب الجماعي: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط2، 1418هـ، 1997م، ص512.

التي تمثل طبيعة التكوين الفكري في الأنظمة المعرفية([45])، وكما أشرنا في الفصل الأول، فإن اسم محمد في الثقافة الغربية عامة، إذا ذُكِرَ، فإنه يستدعي تراثا ضخما من الكراهية والعداء، ليس مع محمد فقط، وإنما مع الإسلام بوصفه دينا، ومع المسلمين بوصفهم شعوبا، ومع العالم الإسلامي بوصفه صراعا ممتدا، يمكن أن يخبو قليلا، ولكنه يعود بصور وأقنعة جديدة، منها ما هو عسكري ودموي، ومنها ما هو فكري ومعرفي، ومنه ما هو هيمنة وهجوم إعلامي.

إن اطلاع المستشرقين على المصادر العربية والإسلامية، وتعرفهم عن كثب على الشعوب الإسلامية، ومعاشرتهم لهم؛ لم يكن – لدى غالبيتهم- سببا في تصحيح الصورة المتوارثة عن الرسول محمد، وإنما كان سببا في تعميق هذه الصورة، وإلباسها مسوحا من المنهجية العلمية، والتفكير العقلاني...؛ لسبب بسيط -يذكره علي النملة-وهو أن الاستشراق قام على خلفية فكرية؛ اتكأت على الصراع الحضاري، بين الإسلام والنصرانية من جهة، والإسلام واليهودية من جهة ثانية، بهدف الحد من انتشار الإسلام في الغرب، وحماية الإنسان الغربي من الإسلام، وأيضا التعرّف على بلاد المسلمين وثقافتهم ومعتقداتهم وثرواتهم تمهيدا لاحتلالهم. ومن الصعب التخلص من مسببات النشأة، لأنها انطلقت من الأديرة والكنائس، وقام بها رهبان وقساوسة، وحتى المستشرقين تجردوا من تحيزاتهم الدينية، وتعلموا العربية ليأخذوا الإسلام من مصادره وبلغتها الأمّ؛ ولكنهم وقعوا في مشكلة محدودية الفهم للنصوص التي اقتبسوها من كتب التراث، وعجزوا عن فهمها على ما أريد لها من الفهم الصحيح([46]).

وهو ما يقودنا إلى مناقشة إشكالية مهمة في الكتابة التاريخية/ الدينية على السواء، وكما يقول طارق البشري، فإن العملية التاريخية والتأريخية تجري بنوعين متكاملين من النشاط البحثي، أولهما تحليل المادة التاريخية، أي التقاطها من مظان وجودها ومصادرها وتحقيقها، وثانيهما: تركيب هذه المادة التاريخية في سياق بنائي واحد. والمادة التاريخية بوصفها أحداثا المفروض أن تخضع لدى الباحث بمنهج موضوعي صارم من التحقيق والثبوت، لينكشف منها الثابت اليقيني، والظني الراجح، ثم يعيد الباحث تركيبها في سياق موضوعي من تداعيها الزمني. ووفقا لما يتراءى لبصيرته البحثية من روابط العلل والمعلولات. وفي كلتا المرحلتين، يوجد عنصر ذاتي، لا ينتمي إلى المادة البحثية، وإنما ينتمي إلى الباحث نفسه: عصره الزمني، ومجتمعه، وهمومه، وشواغله، وهو ما يظهر في الأسئلة التي يفترضها الباحث، وكما قيل قديما فإن السؤال

---

[45]) المرجع السابق، ص510.

[46]) مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم، علي بن إبراهيم النملة، بيسان للنشر والإعلام، بيروت، ط2، 1432هـ، 2011م، ص13، 14.

نصف الجواب، فبواسطة السؤال تنطرح القضية، وتتحدد المسألة، وكذلك الزاوية، والرؤية، والإطار، ومن ثم يرد الجواب وفق المنظور الذي هو محدد مسبقا([47])، إلا في بعض الحالات، حينما يكون الباحث مجيدا للغة، قارئا جيدا للنصوص، وما حولها، واعيا للموضوعية العلمية، والتجرد من الهوى، وساعتها تكون النتائج مختلفة، وغالبا ما تؤدي إلى تغير فكره، وربما إسلامه نهائيا.

فلا جدال أن ذاتية البحث جزء أساسي من تكوين الرؤية البحثية وصياغة مادتها، والأمر يتوقف على صدق الباحث وتجرده، ورغبته في إظهار الحقيقة، وفقا لمصادرها الأصلية، النابعة من الفهم الدقيق للنصوص، وفقا لما عليه فهم أهل اللغة. وإذا أخذنا صورة الرسول بوصفها موضوعا تاريخيا، فإن غالبية المستشرقين، قديما وحديثا، كانوا خاضعين لما تملّك وجدانهم الفردي، والذي هو مأخوذ من الوجدان الجمعي الغربي، فقرأوا السيرة النبوية وتعمقوا أحداثها، ليس من أجل تبيانها على وجه الحقيقة، ووفقا للفهم الصحيح للنصوص، وإنما سعوا إلى تضخيم رؤى بعينها، والانتصار لها، وحشدها بالنصوص المؤيدة وإن كانت كاذبة، مثل إلحاحهم الدائم على أن الرسول (ﷺ) تلقّى الإسلام من قبل رهبان نصارى أو يهود، وبالتالي غمط أي حقائق أخرى تضاد هذا التوجه؛ وأن القرآن الكريم نفسه، ناقش وفند عقائد النصارى واليهود، ونبه إلى مخالفتهم لعقيدة التوحيد، ومع ذلك فإنهم يصرّون على أن الإسلام نسخة مأخوذة من اليهودية والمسيحية. وبالتالي، فإنهم التقطوا من السيرة النبوية ما يغذي قناعاتهم المسبقة، فإن لم يجدوها، لوّوا أعناق النصوص، أو افتروا وأوّلوا وكذّبوا، ليوهموا القارئ أنهم تسلحوا بالمنهجية التاريخية والعلمية، وهذا ما كان في الاستشراق الحديث المبكر والمتأخر، والذي جاء في غالبيته تأكيدا على ما قاله المؤرخون والرهبان عن شخصية محمد قديما، بأنه دعي وكذاب ودجال، وسارق ديانته من الأديان السابقة، أي أنه ليس بنبي، ويكون السؤال: ما قيمة الاستشراق والعودة إلى المصادر الأصلية للسيرة النبوية إذا كانت المحصلة معلومة مسبقا؟ وبالطبع هناك اختلافات بين المستشرقين، في تصوراتهم وقناعاتهم عن الرسول، ولكنها تدور في إطار عام قوامه: إن محمدا ليس نبيا، وما دعوته إلا رغبة في الزعامة لقومه، وسعي لدخول التاريخ.

ومن هذا الإطار تفرعت الأسئلة البحثية التي هي نصف الجواب كما قيل، فجاءت الأسئلة على شاكلة: ما الشخصيات التي استقى منها محمد دعوته؟ وكيف استطاع أن يسوس قومه ويخضعهم؟ وكيف نفسر ظاهرة الوحي؟ وما حقيقة القرآن وهل هو معجز بالفعل؟ وكلها أسئلة تمثل قناعات وتحيزات مسبقة، تخدم هوى الباحث، وتتناغم مع الموروث الفكري والنفسي الغربي. وهو ما يحدده إدوارد سعيد بأن الشرق تحدد

---

[47]) التحيز في الكتابة التاريخية، طارق البشري، في الكتاب الجماعي: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط2، 1418هـ، 1997م، ص233.

بمفاهيم ورؤى وأطر كلية في عقل المستشرق، المعبر عن ثقافة الرجل الأبيض الاستعمارية، فالشرق عنده جماع التعقيدات والإشكاليات والآمال المحطمة، باعتبار أن صاحبها الرجل الأبيض هو الذي تنبّأ أو بشّر بها، وحدد معالمها، أو تفاصيلها بوضوح تام. فالمستشرق يستعرض الشرق من علٍ، وهدفه رؤية الصورة كاملة، وفق العقلية الغربية النمطية عن الشرق، بمفردات مثل الساميين، والعقل العربي والشرق([48]).

أي أن الباحث الغربي/ المستشرق يدور في نفس الدائرة النمطية، ولن يستطيع تغيير قناعاته إلا بالخروج من هذه الحلقة التي تكبله، ومن ثم يصل للحقيقة.

والمثال على ذلك القس أرتور بيلاسنتوس، الحاصل على الدكتوراه في اللاهوت، والرجل الثالث في مجمع كنائس قارة آسيا، والمسؤول عن أنشطة التنصير. وقد بدأت التساؤلات معه حول مفهوم التوحيد، الذي لم يجده وافيا في المسيحية، وكان يعرف أن التوحيد في الإسلام جلي واضح، فلما قرأ ترجمات القرآن، وتوقف عند الآيات الكريمة، التي تدعو إلى التوحيد الخالص، وكذلك الآيات الداعية إلى التفكر في الكون والقرآن، فعرف أن الإسلام دين الحق، فأعلن إسلامه، وغيّر اسمه إلى خالد بيلاسنتوس، وأسلمت زوجته بعده بثلاثة أشهر، وأسلم الكثير من طلابه([49]).

فمفتاح الوصول للحقيقة هو هاجس في النفس، ورغبتها في المعرفة الحقة، وهذا ما حدث مع بيلاسنتوس، الذي حرّكه شوقه إلى الذات الإلهية، التي تشوهت مع تحريفات الكتب المقدسة، أما المشكلة التي عليها المستشرقون، أن الحقيقة لا تحرّكهم وإنما اعتبارات أخرى، تختص بمصالح الدوائر الاستعمارية ومخططاتها.

لذا، نرى أن أفضل تشبيه للقناعات الاستشراق والرجل الأبيض الغربي؛ ما ذكره داريوش شايغان عن "الأصنام الذهنية"، مع اختلافنا معه في المفهوم المطروح، حيث إن الأصنام الذهنية فرضية طرحها الفيلسوف البريطاني فرانسيس بيكون (1561-1626)، هادفا من خلالها إقصاء أية رواسب أو مقدسات ذهنية سابقة، أو بالأدق "مكافحة الذاكرة" بوصفها أحد العناصر المهيمنة في التفكير الحديث لدى الغربيين، بأن يكون التفكير تجريبيا يُبنَى على الأشياء العينية، للتأكيد على مزيد من الفرز بين العلم الشهودي والعلم العملي، وبين الدين والفلسفة، وبين الروح والجسم، فأصنام الذهن الوجه السلبي للذاكرة الأزلية، والعلم بالنسبة له هو نسف تلك الأصنام، واتخاذ منهج بحثي جديد([50]). أما الأصنام الذهنية التي يذكرها، فهي

---

[48]) الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدواد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص370، 371.

[49]) عظماء أسلموا، راغب السرجاني، مؤسسة أقلام للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص48، 49.

[50]) الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، داريوش شايغان، ترجمة: حيدر نجف، دار الهادي، بيروت، ط1، 2007، ص31

أربعة: أصنام القبيلة وهي المعتقدات الكائنة في ذهن الإنسان، والكامنة في قوميته. وأصنام الكهف: وهي العصبيات الخاصة بالفرد نفسه، فكل فرد له معتقداته وهو إدراك منفصل عن قوالب الذهن المسبقة، بصرف النظر عن عصبياته، وتختص بالميول الشخصية، والتكوين الخاص لكل إنسان. وأصنام السوق، وهي ناتجة عن العلاقات مع الناس، والتي تبدو في الكلام والتواصل الشفاهي المباشر، وفيه تظهر شخصية الإنسان وميوله وتحيزاته. وأخيرا أصنام المسرح، وهي النظم الفلسفية الكبرى الموروثة عن الماضي([51]).

وإذا أردنا قراءة هذه الأصنام في ضوء صورة الرسول في الوجدان والمتخيل الأوروبي، سنجد أنها تمتزج امتزاجا فرديا وجماعيا، فقد تحول الرسول إلى صنم، مترسخ في تكوين القوم (القبيلة) وبالأخص الكنيسة ورعاياها، وانعكست بدورها على الإنسان الغربي، وبالأخص الرهبان والقساوسة، الذين اضطلعوا بترويج الصورة السيئة عن الرسول، والتي تحولت إلى صنم مسرحي، لأنها باتت فلسفة أو مرجعية فكرية لا مساس لها، إلا قليلا، بل إن صنم القبيلة أحد الأسباب المشكلة للحملات الصليبية في العصور الوسطى، والاستعمار في العصر الحديث، لأنه يمثل الإرث العدائي ضد الإسلام، وضد أي رمز من رموزه، فالصنمية قائمة في أوروبا شاء أم أبي الفيلسوف فرانسيس بيكون، الذي أراد لشعوب أوروبا التحرر من أصنام الكنيسة والباباوات، فنجح في تحريرها، ولكنه أبقى على صنمية العداء ضد الإسلام.

وهنا نناقش الغرب بوصفه كُلّاً فكريا ونفسيا، ناظرين إلى المعطيات التي شكّلته على مدار التاريخ، كي يصل إلى الحالة الراهنة، فإن الغرب بكل إثنياته ومذاهبه سليل جملة من الأفكار والتنظيرات التي أفرزتها عوامل تطور بنيته وأنساقه، إضافة إلى الاحتكاك المستمر بوجهيه الدموي والسلمي، بينه وبين الشرق على مدار التاريخ، واعتقاد الغربيين أنهم أعلى من الشرق، وهناك فوارق بينهما. وتلك هي الصورة التي يشير إليها إدوارد سعيد قائلا: "إن الشرق الذي يظهر في الاستشراق نظام من الصور التي تمثله؛ والتي صاغته مجموعة كبيرة من القوى، التي أدخلت الشرق في مجال العلوم الغربية، والوعي الغربي، وبعد ذلك بفترة في إطار الامبراطورية الغربية، وإذا كان هذا التعريف يتسم بملامح سياسية، فالسبب هو أنني أعتقد أن الاستشراق نفسه كان من ثمار بعض القوى والأنشطة السياسية. فالاستشراق مدرسة من مدارس التفسير، تصادف أن كانت مادتها تتمثل في الشرق وحضارته وشعوبه ومناطقه"([52]).

إن المفهوم الذي طرحه إدوارد سعيد، هو مفهوم عام عن الشرق في منظور الغرب، يمكن قراءة صورة الرسول من خلاله. ولكن علينا أن نتأمل أولا كيف قرأ إدوارد سعيد الشرق بوصفه نظاما من الصور في

---

[51]) المرجع السابق، ص33.

[52]) الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، مرجع سابق، ص319

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

الوعي الغربي، نظام صاغته قوى عديدة، وصارت جزءا لا يتجزأ من منظومة الوعي الغربي عامة، والأهم أنه أشار إلى كونه مفهومه مسيسا، وتلك نقطة دقيقة، تسلط الضوء على تكوين الاستشراق نفسه، والقوى والأبعاد السياسية التي ساهمت في تكوينه. وإذا قرأنا صورة الرسول في ضوء هذا المفهوم، نجد أن الرسول تطور من علامة إلى صورة في الوعي، تختزل منظور الغرب إلى هذا الشرق الإسلامي الذي كان مصدر تهديد لها طيلة قرون، وانتزع منها مناطق مسيحية شاسعة، ونقلها إلى حظيرة الإسلام.

أيضا، يؤكد إدوارد سعيد على تعميمية الخطاب الاستشراقي، عندما يتم التلاعب في الخطاب العام للمستشرقين على ترسيخ الصورة النمطية، يقول إدوارد عن العادة التي باركتها الثقافة الاستعمارية:" والتي تظهر في تعميمات شاملة ينقسم العالم –وفقا لها– إلى شتى الفئات الجماعية، مثل اللغات والأجناس والأنماط والألوان والعقليات، بحيث لا تمثل كل فئة تسمية محايدة، بقدر ما تمثل تفسيرا يقوم على التعميم، وخلف هذه الفئات يكمن التعارض بين جانبين اثنين: ما ينتمي لنا، وما ينتمي لهم، ويطغى الأول دائما على الأخير"([53]). ومن أسوأ ما يمكن أن يصل إليه البحث العلمي أن تكون نتائجه في النهاية خاضعة للتعميم، غير العقلاني، وغير الأخلاقي، بمعنى أن الاستشراق يقدم موضوعات من منظور المركزية الغربية الحضارية، التي تقيس العالم بمقياس: من معنا؟ ومن ضدنا؟ دون تحديد من المقصود بالأنا الجمعية، والأنت الضدية، فكأن الغرب كله كتلة واحدة، وكذلك الشرق كتلة واحدة، وتلك من استراتيجيات الخطاب الاستشراقي المرافق للاستعمار، حين يصبح موضوعات بحثية خاضعة للسياسة وتقلباتها. وإذا تسيّسَ العلم، لابد من الشك في نتائجه، فما بالنا إذا كان العلم والعالِم وموضوع الدراسة العلمية كلها ساقطة في مرحلة تتخطى التسييس بالمعنى الانتهازي النفعي الذي يروّج أفكارا بهدف السيطرة والهيمنة؛ تتخطاها إلى قناعات متوارثة، تتجذر بوصفها أشكالا من التحيز في نفوس الباحثين، فتؤثر في منهجيتهم العلمية وفي النتائج المنبثقة منها، وفي المحصلة الكلية لهذا التراكم الهائل.

إزاء كل هذا، ينبغي علينا النظر في سبل تفنيد صورة الرسول(ﷺ)، التي رأيناها في كتابات المستشرقين، ونحاول أن نفكك هذه الصورة المتخيلة، والمصنوعة في النسق الثقافي الغربي، حتى باتت جزءا من الوعي العام الفردي والجماعي، مثلما أضحت أساسا في المتخيل، وفي التحيزات والقناعات السابقة في الدراسات العلمية.

---

[53]) المرجع السابق، ص354.

تفنيد الشبهات وتفكيكها:

ثمة طرائق عديدة للرد على الادعاءات المختلفة المضادة والمشوهة لصورة الرسول(ﷺ)، ولكن لابد من التأكيد على أن هناك إشكالية محورية هي التي دعت الغرب إلى تكوين هذه الصورة عن الرسول، حتى لا ننجرّ إلى الرد بالقطعة على كل نقطة أو جزئية أثيرت ضد الرسول، فهناك من الكتب الكثيرة التي تطوعت بفعل هذا، وهي جهود مشكورة دون شك، ولكن نريد مناقشة قضية التفنيد هنا من منطق آخر، يتعلق بالمنهجية المتبعة نفسها، فبدلا من السعي وراء المتناثرات والنتائج، علينا أن نحفر في طبيعة التفكير في تكوين الفكرة عن الرسول(ﷺ)، وقد أوضحنا فيما سبق الأسباب التاريخية والثقافية والدينية والسياسية التي شكّلت هذه الصورة، الآن سنسعى إلى النظر في طريقة التفكير ذاتها، وهو ما يقودنا إلى نمط من التفكير نسميه "النموذج المنطقي للتفكير"، والذي يمكن تعريفه بأنه "تلك المجموعة من الكيانات الصورية التي نفترضها عقليا كتفسير مشبّع لكل الحدود والبديهيات والمبرهنات الواردة، في نسق علمي ما، بحيث تفصح قضايا النسق، عن هذه الكيانات من خلال العلاقات الاستنباطية القائمة بينها" ([54])، فبدلا من البحث في الموضوعات ذاتها، سنبحث في طريقة التفكير في هذه الموضوعات، وسنعرف من خلالها الأنساق الفكرية التي أنتجتها، مما يلتقي مع رؤيتنا التي بسطناها في الفصل الأول، حول الأنساق الثقافية التي شكلت صورة محمد في الوجدان الغربي، ومما يقودنا في النهاية إلى النظر في حدود التفكير والفرضيات التي طرحها المفكرون الغربيون، وأيضا البراهين التي ساقوها. وبعبارة أخرى: سنبحث في طريقة التفكير، وآليات البحث، وسبل المنهجية والبرهنة.

على صعيد آخر، فإن البحث في المنطق والنسق، يُلزمُنا إلى البحث في العلامة، وقد ذكرنا أن محمدا شكّل –ولا يزال يشكل– علامة على منظومة هائلة من التصورات عن الإسلام والمسلمين عامة، وعن شخص الرسول خاصة.

وعندما ننظر في علم السيمياء وعلاقته بمنطق التفكير، نجد أن العلامة تأتي على دربين: منها ما هو قصدي، ومنها ما هو اعتباطي، فالأخير يعني أن العلامة تشكلت بدون قصد مسبق من قائلها أو صانعها، وفهمها الناس وتعاملوا بها، بدون النظر في أسباب اختيارها، وهنا تكون اعتباطية التكوين، مع فهم الدلالة. أما العلامة المشكلة قصديا، فهي التي تخص دراستنا عن الرسول(ﷺ)، فإن اسم الرسول تشكل بوصفه علامة قصدية، مقيدة بقصدية الأداء، أو بإرادة من يصنعها، ويسهل بالتعالي تعليل أسباب تشكلها،

[54]) النموذج العلمي بين الخيال والواقع: بحث في منطق التفكير العلمي، د. صلاح عثمان، منشأة المعارف للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2001، ص88.

بعكس العلامات الاعتباطية، فلا حضور للمرجع أو التعليل فيها، بينما يكتسي حضور التعليل والمرجع دلالات في العلامة القصدية([55]).

فقد أنتجت صورة محمد في الوجدان الغربي مجموعة هائلة ومتداخلة من الأنساق الثقافية، التي تكونت من تراكم تاريخي ممتد على مدى قرون طويلة، شهدت صولات وجولات، وكونت أبعادا نفسية واجتماعية، وكلها تؤدي إلى نتيجة واحدة تقريبا، إلا ما ندر، ألا وهي أن محمدا ليس نبيا، وإنما هو شخص طموح، ادعى الإسلام، وسرق تعاليمه من اليهودية والمسيحية، وأن محمدا ليس مجرد علامة على الإسلام فقط، وإنما أتباع محمد كانوا مصدر تهديد دائم للغرب المسيحي، ولابد من مواجهتهم.

وثمة شبهات أساسية تشكل -في رأينا- الهجوم على شخصية الرسول (ﷺ) من قبل الغرب، وقد ذكرنا أكثرها في الفصل الأول، وستكون هي موضع ردودنا، بوصفها الشبهات الأساسية الطاعنة في لُبّ دعوة الرسول وشخصيته، دون التطرق إلى قضايا أخرى فرعية، خاض فيها الطاعنون، وفنّدها الكثيرون. وسنسعى إلى تقديم إحاطة شاملة -قدر المستطاع- وفقا لمنهجية جامعة بين العقل والنقل والأخبار التاريخية، فالأمر لا يتعلق بشبهة ويتم الرد عليها، وإنما يمتد إلى منهج التفكير ذاته الذي دأب الغربيون على اتباعه وهم يقدمون شخصية محمد، وشعارهم المرفوع المنهجية العلمية، والحقائق التاريخية.

الشبهة الأولى: إنكار نبوة محمد، ونفي أي طابع إلهي لرسالته:

وهي الشبهة المركزية في رأينا، والتي تمثل القاعدة التي ينظر بها الغرب المسيحي إلى دعوة الإسلام والرسول (ﷺ)، فلو اعترفوا به، فمعنى ذلك وجوب اتباعه.

لذا، كان نهجهم إثبات أن القرآن الكريم وتعاليم الإسلام هي إنتاج بشري، من قبل محمد، بروافد أخذها من ديانات أخرى حنفية أو مسيحية أو يهودية، أو أخذ من عادات وتقاليد العرب قبل الإسلام، وضمّنها في دينه الجديد. وكانت وسيلتهم للبرهنة على ذلك أن ما حدث لمحمد من نزول الوحي والأمارات والحركات والأحوال التي كانت تنتابه، إنما هي أمور لا يقبلها العقل، ولا تجري مجرى العادة، وافترضوا في ذلك كل الاحتمالات، إلا احتمال واحد وهو أنه نبي مرسل من الله سبحانه وتعالى، وفي الوقت نفسه هم يؤمنون بحدوث الوحي لموسى وعيسى عليهما السلام، وهذا دال على أن المسألة لا تتصل بموقف عام من الرسالات

[55]) السيميائيات الواصفة: المنطق السيميائي وجبر العلامات، د. أحمد يوسف، منشورات الاختلاف-الجزائر، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2005، ص82- 84.

السماوية- على نحو ما نجد لدى معتنقي العلمانية الشاملة (الملحدين)- وإنما تتصل بالإسلام ورسوله تحديدا.

وفي منطق التفكير، نجد طريقين كل منهما يجعلنا نعتقد أنهما حق؛ الطريق الأول هو المعرفة التي نحصلها بأنفسنا، ومن خلال حواسنا أو عن طريق العقل، وهي ما تسمى الطريقة العقلية في التفكير. والطريق الآخر هو سلطة شخصيات نثق فيها، وهم الذين يؤكدون لنا أن هذا الشيء ثابت، وإن كنا لا نعلمه، وهذا هو الإيمان أو الاعتقاد. والإيمان له مصدران: إيمان إلهي، وإيمان إنساني، والأخير يمكن أن يكون كاذبا، لأن الإنسان نفسه معرض للخطأ، أما الإيمان النابع من مصدر إلهي، وتم الاتفاق على أنه داع لكل خير وسعادة، وإلى ربانية العقيدة([56]).

وبناء على ذلك، فإن رد مثل هذه الشبهة الأساسية الخاصة بنفي نبوة محمد، يحتاج إلى التأكيد ثانية على أن هذا يحتاج إلى النظر إلى جوهر الرسالة الإسلامية، وهو التوحيد الخالص الصافي، المطهر من كل دنس وشرك، فلم يدع محمد إلى عبادته، وإنما دعا إلى الواحد الأحد، الذي هو محور الديانات السماوية، وعلى رأسها الديانة الحنفية، وهو ما لم ينتبه إليه المهاجمون، أو بالأدق لم يركّزوا عليه، وإنما طرحوا أسئلة على شاكلة: مَن أين عرف محمد الله في السماء في مجتمع وثني؟ وكيف توصّل إليه؟ ولأن السؤال نصف الإجابة، فإنهم لم يؤمنوا بالقرآن أو الوحي، التي هي أبرز الدلائل على فحوى التوحيد، وأن هناك اتصالا حدث بين محمد، وبين ربه، بواسطة جبريل. وتلك هي القضية. وقد جاءت إجاباتهم على أن محمد عرف المصدر السماوي من الديانات السابقة، ونسوا أن التوحيد في الإسلام يخالف العقيدة في اليهودية والنصرانية، وما فيهما شوائب وتشوهات، بعكس الإسلام ونقائه.

أما بقية مزاعمهم عن مصادر الوحي، فقد ذهبوا إلى الغيبيات التي يعرفونها، وهي أن الوحي الذي تمثل إلى محمد، كان شيطانا أو جنّا، وهذا حدث نتيجة اختلائه في غار حراء، نافيين أنه وحي إلهي سماوي. وتلك التهمة، التي فندها القرآن الكريم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(الشعراء، 211، 212)، يذكر ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، أما قوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين)، فيذكر أنه يمتنع عليهم (أي على الشياطين) من ثلاثة أوجه، أحدها: أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بغيتهم ولا من

[56]) المنطق أو فن توجيه الفكر، أنطوان أرنولد، بيير نيكول، ترجمة: عبد القادر قنيني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2007، ص365، 366.

طلبتهم; لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة; ولهذا قال تعالى:(وما ينبغي لهم)([57]).

في كلام ابن كثير دليل عقلاني؛ فما دام متهمو الرسول(ﷺ) يعترفون بأن هناك جناً أو شياطين أوحت إلى محمد بذلك، فهم يشبهونه بأنه مثل السحرة أو المشعوذين، وهي تهمة راجت وترددت في العصور الوسطى، حيث رأوا أن محمدا أقرب إلى الكهّان الذين انتشروا في الجزيرة العربية، ولدى الشعوب البدائية، بل إن هذا كان دأب مدعي النبوة بعد وفاة الرسول، مثل طليحة الأسدي، والأسود العنسي، وفسر المستشرقون لفظة مدثر على أن محمدا كان يلبس جلد ثور أو جلد شاة([58])، في دلالة على أنهم لم يفهموا لفظة مدثّر في سورة المدثر، والتي تعني النائم في ثيابه، أو المتغطي بها، ولا تعني أبدا أنه لَبِس جلد ثور أو شاة، مثلما يفعل كهنة الوثنيين، وإنما كان في ملابسه العادية. وبالعودة إلى كلام ابن كثير، فقد أشار إلى أن الشياطين أو الجن ما ينبغي لها أن تأتي بمثل الهدى والأخلاق والتوحيد، وإنما هي تأتي بالضلال والإفساد. وهذا يعني أن من ردد هذه الشبهة، نظر من الخارج، دون تمعن في ماهية الإسلام وجوهر هديه وأخلاقه، وسارع ببناء تهمة، دحضها القرآن والعقل معا.

كما أنهم لو تتبعوا ماهية الشياطين أو الجن، فإنها لا تتلبس في صورة بشر، وقد ظهر جبريل بهذه الهيئة، وأن الرسول معصوم من الشيطان، والأهم أن الجن والشياطين لا يعلمون الغيب أي الجنة والنار والملائكة وما بعد الموت، ويوم الحساب.. إلخ، وهذا ما يحفل به القرآن، ويشكل الأساس العقدي في الإيمان بالغيبيات([59])، ومن أجل ذلك يتكرر السؤال: إذا كنتم آمنتم بالوحي على موسى وعيسى، فلماذا لا تبحثون عن سمات الوحي في كتبكم المقدسة، وفيها الإشارات عن الوحي الرباني، وتقارنون بينها وبين سمات الوحي الذي تنزّل على محمد؟

الشبهة الثانية: نفي الوحي القرآني عن الرسول:

وهي مترتبة على الشبهة السابقة، فمن المسلَّم به لدى المستشرقين المهاجمين للرسول(ﷺ) أن القرآن منتج بشري، وهذا نابع من منظورهم في بشرية الإسلام كدين، أي أنه تم اختراعه من قبل الرسول. والقضية أن

---

[57]) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة، الرياض، 1422هـ / 2002م، ج6، ص166.

[58]) دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، ص55.

[59]) موسوعة بيان الإسلام: الرد على الافتراءات والشبهات، مجموعة مؤلفين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 2012، مج 2، ج4، ص13.

هؤلاء المستشرقين لا يمتلكون العربية فهما وتذوقا وإبداعا على النحو التام الصحيح، وغالبا ما قرأوا القرآن مترجما، ولم يتمعنوا في جمالياته، ولا وجوه إعجازه، وبالتالي يتعاملون مع القرآن بوصفه منتجا بشريا. وللرد على هذه الشبهة، نورد ما ذكره شوقي أبو خليل حول مصدر القرآن، وكان نقاشه عقلانيا هادئا، حيث يفترض بداية أن القرآن من تأليف محمد، أو تأليف العرب، أو من مصدر ثالث مجهول. فإذا كان من تأليف محمد كما ادّعوا، فإن الرد عليهم بسيط، وهو أن شتان الفرق بين أسلوب القرآن وأحاديث الرسول (ﷺ)، وهذا يدركها من عرف العربية ووقف على جمالياتها، وقد كان التحدي قائما من قبل كلام الله تعالى إلى مشركي مكة، الذين عرفوا الشعر وتذوقوه، وفهموا أدق تفاصيله، ووقفوا مبهورين أمام القرآن، الذي ليس هو بكلام بشر، وليس بشعر، وعرفوا يقينا أن محمدا لا يمكن له أن يبتدعه من عنده، فلم يكن محمد شاعرا، ولا عُرِف بقول الشعر، على الرغم من أنه أوتي مجامع الكلم، ولكن أحاديثه تغاير تماما أسلوب القرآن، وتظهر بشريتها بشكل واضح، وتشمل كل ما صدر عن الرسول من مقولات وإرشادات، أما القرآن فكان إعجازه جليا متى تُلِيَ على أسماعهم، وظل التحدي قائما مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، (يونس، 38).

فاتهام المستشرقين سبق وأن ردده مشركو مكة وهم الضليعون بالعربية والشعر، فكان التحدي من قبل الله جلّ وعلا بأن إذا كان القرآن بشريا، فالأمر بين أيديكم: هاتوا مثله إن استطعتم؛ وقد عجزوا تماما عن الإتيان ليس بسورة، وإنما بآية واحدة. أيضا، لم يعرف من قبل أسلوب القرآن في أدبيات العرب في الجاهلية، وأيضا من بعد الإسلام، وإنما ظل القرآن موضعا للاستشهاد شعرا ونثرا وتأليفا وحكمة، وأينما وُضِعت آياته في أي سياق أو نص، تلألأت وشعّت بلاغة ودلالة.

وإذا انتقلنا إلى محتوى القرآن ذاته، فإن السؤال المطروح كيف لشخص محمد الأمي البسيط، الذي لم يتلقَّ أي نوع من التعليم أن يأتي بهذه السور بما فيها من إعجاز علمي وتشريعي ولغوي وبلاغي، لا تزال منهلا إلى يومنا، وإلى قيام الساعة؟ ناهيك عن القيم السامية، والإخبار عن الأمم والديانات السابقة، ومحاججة أهل الكتاب وذكر وقائع تاريخية وغير ذلك؟ ولذا، يقول أبو خليل لو افترضنا أن القرآن من تأليف محمد، لما صار محمد بشرا، لأنها أمر فوق العبقرية البشرية، بل تعجز جموع العباقرة أن تأتي بمثلها، بما فيه من تشريعات وعقائد وأخبار، ونظرة كلية عن الكون والحياة والمخلوقات. كما أن القرآن به مواضع عديدة فيها عتب على الرسول (ﷺ) فهل يمكن أن يعاتب الرسول نفسه، ويورد ذلك في كتاب ألّفه؟ كما أن آيات القرآن نزلت منجَّمة (متفرقة)، وكان الرسول ينتظر أياما أو أسابيع حتى يأتيه التوجيه الرباني، فلو كان من تأليفه، فلماذا ينتظر هذه الفترة، والصحابة يترقبون من حوله؟ على جانب آخر، لا يعقل أن

يكون الرسول قد استعان بشاعر أو أديب من بلغاء العرب، وإلا لعرفه أولو الخبرة والذائقة من قريش وغيرها، فآيات القرآن متى وأينما تُليت في القبائل العربية كانوا يتفاجأون من بلاغتها وإعجازها، ولم تذكر الأخبار التاريخية أي خبر بأن هناك من ساعد الرسول (ﷺ) في إنشاء القرآن. وبالتالي، ليس أمامنا إلا العودة إلى الاحتمال الثالث وهو أن القرآن كلام إلهي ووحي رباني([60]).

وهنا نصل إلى مربط الفرس، المتمثل بأن المستشرقين حاموا حول القرآن الكريم والسيرة النبوية دون أدنى تعمق فيها، ولا فهم لإعجاز القرآن، ولا الفرق بينه وبين الأحاديث النبوية، فقد كانوا أشبه برجل الشرطة الذي أراد أي قرينة ليدين بها متهما مظلوما، دون أن يتأمل فيما حول القرينة ولا أدلتها ولا أبعادها، ومن ثم تعجّل بإصدار التهمة، وجعلها قناعة ومسلّمة، ولذا سرعان ما انهارت في النقاش العقلي، والعلمي، لأنها تهمة واهية الأساس، دالة على عدم فهم القرآن، ولا التعمق في معانيه، وتذوق أسلوبه، ولا فهم عقيدة الإسلام، وتشريعاته، التي انبثقت من القرآن.

وهو ما نراه في شبهة أخرى ذات صلة، بأن القرآن يتعارض مع الأناجيل المقدسة، ولو كان كلاما إلهيا، لما كان هذا الاختلاف، والقصد صورة المسيح في القرآن الكريم. وسياق هذه الشبهة إذا نظرنا إليها، تكشف أيضا أنهم وقفوا على حافة القرآن، ولم يتمعنوا في القضايا التي تناولها حول المسيح، فالقرآن الكريم يؤكد على نفي ألوهية المسيح، وأنه نبي مرسل، وأن الطبيعة البشرية للمسيح أكدتها أناجيلهم، وهو لب النظرة القرآنية، وأن تأييده بالمعجزات كان بأمر الله، وليس سببا ليكون إلها، فهي من علامات النبوة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(المائدة،110)، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران، 55).

وما يؤمن به المسلمون من تحريف الكتب المقدسة في التوراة والإنجيل أثبتته الدراسات التاريخية الدينية، خاصة أن الإنجيل الأساسي مفقود، والأناجيل المتوافرة كتبها كما يقولون أناس الله القديسون، كلٌ بأسلوبه المتميز، وبمفرداته، وإن زعموا بأنهم كتبوها بوحي من روح القدس، ومن يتأمل في الأناجيل، يكتشف أن

[60]) انظر: الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986، ص24- 31.

كَتَبَتها لم يكونوا يوما قديسين، ولم يتواصلوا مع روح القدس، ولم يعاصروا أو يشاهدوا المسيح بأي حال. وهذا لا ينفي وجود نصوص صحيحة في الأناجيل، تتفق مع جوهر الرؤية القرآنية حول شخص المسيح ورسالته وبشريته ونبوته([61]).

ومع تعدد الأناجيل، وبشرية كتّابها، الذين سجلوها بعد تناقلها شفاهة لأجيال عديدة، فإن مقارنتها مع القرآن الكريم المحفوظ بأمر الله تعالى تظل قائمة، وقد تعهده المسلمون بالتدقيق والعناية، والحفظ والتجويد، ناهيك عن عشرات العلوم التي نشأت خدمةً للنص القرآني المقدس، وللأسف فإن مهاجمي القرآن والوحي المنزل على الرسول، لم يتمعنوا في وجوه إعجازه، ولا غاصوا في تفاصيل هديه، وإنما وضعوا الأناجيل مقياسا ونموذجا، قاسوا عليه القرآن والرسالة الإسلامية، ورفضوها بناء على اختلافها مع نصوصهم الدينية، وهنا تنتفي موضوعية المقارنة.

الشبهة الثالثة: تلقي الرسول(ﷺ) الإسلام من رهبان النصارى واليهود:

وهي الشبهة التي تُعَدُّ نتيجة للشبهتين السابقتين، فقد أرادوا البحث عن أي دليل يثبت من أين أتى محمد برسالته، وكيف عرف أخبار الأديان السابقة، وناقش عقائدهم، بهدف تدعيم وجهة النظر التي تفيد ببشرية الرسالة المحمدية، ونفي الربّانية عنها، وفي هذا يتكئون على لقاء الرسول (ﷺ) براهبين، أولهما: بحيرا الراهب في الشام عندما ارتحل الرسول وهو غلام مع عمه في قافلة تجارية إلى الشام، والثاني: الراهب نسطورا أثناء رحلته بتجارة السيدة خديجة (رضي الله عنه) في الشام.

والرد على هذه الشبهة، لابد أن يكون من خلال النظر إلى أحداث السيرة النبوية جميعها، وإلى مضمون الإسلام وعقيدته وتشريعاته ومنظومته الأخلاقية والقيمية، وهذا الملاحظ على المستشرقين، فقد ولجوا الإسلام بقناعات مسبقة، باحثة عن العثرات والثغرات والشبهات، غير ناظرة إلى الإسلام بوصفه كلاً متكاملا، وأيضا النظر إلى واقع الحياة في الجزيرة العربية والشام، فوجود ديانات سماوية مثل اليهودية والمسيحية ورهبان وكهّان، أمر عادي، وكانت هناك قبائل متنصّرة، وهناك أيضا قبائل متهوّدة، وكان العرب يقابلونهم ويتحدثون معهم، ويعرفون بعضا من المعلومات عن ديانتهما، فمجرد اللقاء يومين أو ثلاثة، وهي لقاءات غير متكررة؛ لا يعني التعلّم الكامل، الذي يجعل الرسول (ﷺ) ينشئ دينا قيما مثل الإسلام، وإنما هي فرية تم تضخيمها وضخ الأكاذيب والخيالات حولها، ليصدقها من لا يعرف وقائع السيرة.

[61]) موسوعة بيان الإسلام، مرجع سابق، مج 2، ج4، ص 98- 100.

فالثابت في السيرة النبوية أن الرسول (ﷺ) لم يذهب إلى الشام إلا مرتين فقط، وضمن رحلتين تجارية، وفي مدار عشر سنوات، واللقاء بهذين الراهبين وارد، وضمن سياق المقابلات الإنسانية المعتادة، ولكنهما غير كافيين للتعلم. ثم إن الدليل الأشد، لماذا لم نجد أية اتهام من كفار قريش وهم يجادلون محمدا (ﷺ) بأنه أخذ ديانته من رهبان المسيحية أو اليهود، وقد كانوا على علم بهاتين الديانتين، ولو كان الرسول قد قال ببعض مقولاتهم لأدركها مشركو مكة، ولجادلوه بها؟!

وإذا عدنا إلى تفصيلات خبر لقاء الرسول مع بحيرا ونسطورا، فإن الرسول (ﷺ) كان في التاسعة من عمره، عندما رحل مع عمه أبي طالب إلى الشام ومروا بالراهب بحيرا، وكان حديث بحيرا مع العم أبي طالب، ولم يكن مع الغلام الطفل محمد. أما لقاؤه (ﷺ) مع نساطورا، فكان خلال رحلته التجارية مع ميسرة، غلام السيدة خديجة، وكان حديث نساطورا مع ميسرة وليس مع الشاب محمد، الذي كان في الخامسة والعشرين من عمره. وحتى لو افترضنا حديثا بينهما، هل هذا اللقاء القصير سبب في تعليم محمد هذه الديانة العظيمة؟ وفي كلا اللقاءين، كانت البشرى بأن محمدا سيكون نبيا، هكذا ذكر بحيرا لأبي طالب وحذره من اليهود، وهكذا أيضا ذكر نساطورا لميسرة، مؤكدا أن سماته مذكورة في الكتب الدينية عند اليهود. على صعيد، آخر لم يرد أي خبر في السيرة النبوية عن ارتحال الرسول (ﷺ) بعد ذلك إلى الشام قبل البعثة أو بعدها، ولم تذكر كتب السيرة والأخبار أن هذين الراهبين قدما إلى مكة بعد ذلك، فكل ما ذكر وأشرنا إليه في الفصل السابق، إنما هي تهويلات كاذبة تنتصر لقناعة مسبقة، وتفترض ما لم يقع، وتسلم به كحقيقة.

أمر آخر وهو أن الإسلام عارض المسيحية واليهودية في كثير من آياته، على مستوى العقيدة والتشريع والتاريخ، وهذا لا يتفق مع منطق الأخذ والاستعارة، خاصة مع شخصية مثل محمد الثابت تاريخيا عنه أنه كان أميّا، ولذلك عيّن عددا من الصحابة كتّابا للوحي، ولو عرف القراءة والكتابة؛ لما استعان بهؤلاء، ولكانت التهمة جاهزة من قبل الكفار والمشركين وأهل الكتاب، بأنه اطّلع على كتبهم. ولذا، كيف عرف بكل هذه القضايا الشائكة التي أثارها القرآن الكريم، وفصّل فيها القول والرد على النصارى واليهود؟ ومن أبرز هذه القضايا المعارضة للدين المسيحي؛ مناقشة صلب المسيح، وتصحيح خطأ النصارى في ذلك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، (النساء، الآية 157). فأين التوحيد المطلق في الإسلام، بالمقارنة بعقيدة التثليث (الأقانيم الثلاثة) عند بحيرا ونسطورا؟ وقد كان كلا الراهبين يقيمان في أديرة على طريق الشام، وثبت تاريخيا أنه كان لقاء عابرا، لا

يسمح بتعلم أو معرفة، سواء كان محمدا صبيا أو شابا. وفي جميع الأحوال، فإن الرسول أعلن نبوته بعد آخر لقاء بخمسة عشر عاما، فلماذا سكت طيلة هذه السنوات، ولم تبدُ عليه بوادر التأثر؟ كما أن هؤلاء الرهبان فروا من اضطهاد الكنائس لهم، وعاشوا في الجزيرة العربية أو في بادية الشام، وكانوا ينتمون إلى مذاهب متعددة، فأي عقيدة تعلمها محمد منهم: عقيدة الصلب والفداء، أم عقيدة التثليث؟ ناهيك عن مذاهبهم المتعددة.

أيضا، لقد جاء الرسول والعالم حوله يزخر بالفلسفات والديانات الوضعية والسماوية والوثنية، وكانت دعوته إلى التوحيد الخالص سبيلا لنجاة البشر من ترهات الملل والنحل. أما العبادات في الإسلام: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، فكلها تختلف عن العبادات في اليهودية والمسيحية. وقد ادّعى بعض المستشرقين أن الفاتحة مأخوذة من الإنجيل، علما بأن لب الفاتحة هو التوحيد المطلق لله سبحانه، وأن الضالين المقصود بهم النصارى، والمغضوب عليهم هم اليهود وفقا للأحاديث الصحيحة، التي فسّرت المقصود بهما([62]). ويمكن أن نقرأ سائر الشبهات المقارنة بين المسيحية والإسلام في ضوء المعيار الذي وضعه هؤلاء المستشرقين، والمتمثل في أن ديانتهم صحيحة، والإسلام ورسوله بشريان، ولا احتمال غير ذلك.

الشبهة الرابعة: الرسول بوصفه زعيما سياسيا محنّكا وداهية:

وتلك الشبهة التي درجت كثيرا من كتابات المستشرقين، عندما يمتدحون شخصية الرسول (ﷺ) بأنه امتلك قلوب أصحابه، وساسهم، وأقنعهم بزعامته، فالتفوا حوله، وصدقوا ما يدعو له، وعدّوه دينا جديدا، وكانوا جنودا في الامبراطورية التي أسسها الرسول، وواصل خلفاؤه من بعده وهو زعم خبيث يتمدد لكي يضرب في مقتل جوهر الرسالة الإسلامية، والمتمثلة في النبوة والوحي الإلهي، ويجعل الرسول أشبه بالزعماء العظام، الذين سعوا إلى تأسيس دول وممالك، على غرار الإسكندر المقدوني، وجنكيز خان، وبالتالي تتهاوى دعوى النبوة، وتتحول إلى مُلك دنيوي.

وللرد عليهم لابد من تقرير حقيقيتين: أولهما: إن السمات الشخصية مهما حملت شخصية صاحبها من زعامة وكاريزما وحسن قيادة؛ لا تعني أبدا إيمان الناس بكونه نبيا، وإن ادّعى النبوة. كما أن هناك من العرب من أراد استمالة العرب، وحاز الملك والمال، ومع ذلك لم يلتف الناس حوله، ألا وهو أبرهة الأشرم، الذي أراد السيطرة الروحية على أهل الجزيرة من خلال الكنيس الذي بناه في صنعاء، لمنافسة الكعبة،

[62]) موسوعة بيان الإسلام، مرجع سابق، مج 2، ج4، ص 36- 44.

ولكن لم يحج أحد إليه، مما دعاه لمحاولة هدم الكعبة. فالشاهد أن الملك والزعامة والمال ولا السمات الشخصية ليست سببا للإيمان به نبيا مرسلا.

ثانيهما: لم يؤمن العرب بالرسول (ﷺ) إلا لأنهم عرفوه صادقا أمينا قبل البعثة، فلما جاءهم بالقرآن ورسالة التوحيد، كان مثالا في الأخلاق والسمو الروحاني، وقدوة لهم في السلوك والقيم والتراحم. هذا بجانب المعجزات التي رآها العرب للرسول (ﷺ)، وهو يتحداهم بآيات القرآن الكريم وإعجازه المطلق، والإخبار عن المستقبل، وعن الأمم الماضية، وعما غاب عنهم، وأحداث السيرة ملأى بعشرات الأمثلة والمواقف التي تشهد بالتأييد الرباني للرسول (ﷺ)، وكان الصحابة عليهم الرضوان في عجب وإيمان وتصديق كامل لها، وكذلك شهد له الأعداء والكفار([63]).

هذا، وإذا تأملنا بدقة سيرة الرسول وعلاقته بقبائل العرب، نجد أن فرضية الزعامة لا تتحقق على نحو ما يفهمه الناس دنيويا، أي بمعايير المنفعة والسعي لكسب الجماهير، لسبب بسيط، أن محمدا وصل إلى أعماق قلوب العرب، بكل قساوتها وصلادتها، وبكل ما عُرِف عنهم من أخلاق الجاهلية، فتحولوا إلى مسلمين ذوي أخلاق سامية، وتربوا في مدرسة الرسول، وقد جاءهم الرسول بما يضاد عقيدتهم التي درجوا عليها من آبائهم، وتتحكم في شهواتهم، وتأخذ من أموالهم، وتجعلهم يضحون بدمائهم، فقد سار مسارا معاكسا لما عليه الزعماء والملوك الذين لا يصدمون شعوبهم في معتقداتهم وإنما يسايرونهم ويهادنونهم([64]).

أما سمو خلق الرسول فهو عائد وفقا للرؤية القرآنية إلى الله سبحانه وتعالى، التي تثبت أن الرسول مبعوث من الله سبحانه وتعالى، على خلق سام وعظيم، يتحدث بلسان قومه، لا يريد منهم إلا الإيمان والهداية، وسياستهم الرحمة والهداية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، (التوبة، 128، 129). ولم يسلك معهم سلوك الملوك، الذين يترفعون عن رعاياهم، ويعيشون في القصور وأبهة السلطة، وإنما كان الرسول واحدا منهم، بسيطا، يؤاخيهم ويعلمهم الإيمان والحكمة، عملا بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾،(الكهف، 110)، وهو ما أثار عجب الكفار، وكما نعت القرآن الكريم تفكيرهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ

---

[63]) موسوعة بيان الإسلام، مرجع سابق، مج 2، ج4، الصفحات: 129، 132.

[64]) ثورة الإسلام، وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله، محمد لطفي جمعة، دار عالم الكتب للنشر، القاهرة، 1423هـ، 2002م، ص34.

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، الفرقان، 7-11).

وإذا نظرنا من زاوية أخرى، ألا وهي الصحابة الكرام –عليهم الرضوان– الذين اتبعوا الرسول، وآمنوا به، وتحملوا التعذيب، ثم هاجروا، وشاركوا في الغزوات، سندرك أنهم كانوا شخصيات عظيمة، ليست وضيعة، ولا جاهلة، ولا يسهل خداعها، وليست طالبة للدنيا، متكالبة على منافعها، كما أنها أدركت عظم رسالة الإسلام، وسمو قيمها وأخلاقها، وهو ما صاغه جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) في حواره مع النجاشي عندما جاء عمرو بن العاص يطلب تسليمهم لتقديمهم إلى قريش، حيث وصف جعفر دعوة الرسول وصدقيتها وأخلاقها بقوله:" أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. دعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدَا (طغى) علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك" فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضَلوا مصاحفهم(كتبهم)([65]).

الخطبة التي ذكرها جعفر بن أبي طالب قطعة من البلاغة والحكمة والإيمان، وهي خير دليل وبينة على صورة الرسول(ﷺ) في نفوس المؤمنين، وقد كان ذلك في الهجرة الأولى إلى الحبشة، حيث اضطهدت قريش المسلمين، وتفننت في تعذيبهم، فأمر الرسول عددا من صحابته بالهجرة إلى الحبشة، فإن مَلَكها كان موصوفا بالعدل. ولذا، رفض النجاشي تسليمهم لعمرو بن العاص، الذي كان لا يزال على الكفر ساعتها،

[65]) السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1396هـ، 1976م، ج2، ص20، 21. هناك روايات عديدة ذكرها ابن كثير لمقولة جعفر بن أبي طالب، وهذه الرواية أصحها.

وطلب من المسلمين أن يعيشوا في بلاده كيفما شاء لهم. بل إن النجاشي نفسه أسلم بعد ذلك، ولما مات صلى الرسول عليه صلاة الغائب([66]).

الشاهد هنا أن الخطبة كليةٌ في رؤيتها عن دعوة الرسول، وكيف استقبلها الصحابة عليهم الرضوان، فهي مقارنة بين ما كانوا عليه في الجاهلية، وما جاء بهم الرسول من أخلاق وسمو، ولو كان الرسول (ﷺ) يبتغي الزعامة لأبقى الناس على معتقداتهم وما ألفوه من عادات، ولكن الرسول بدأ بإلغاء عقيدتهم وما فيها من كفر، وعلمهم التوحيد الرباني نقيا صافيا، ثم علمهم الأخلاق سلوكا وتعاملا، فهل هذا يمكن أن يكون طالبا للزعامة، ساعيا إلى الدنيا والقيادة؟ لذا، نقول ونؤكد أن دعاوى الاستشراق كلها لم تنظر إلى دقائق السيرة، ولا حكمة الرسول السامية، ولا مواقف الصحابة العظيمة، والأهم أنها لم تقارن بين حال العرب قبل الإسلام عقيدة وأخلاقا وسلوكا وقيما، وما أحدثه الإسلام فيهم من إيمان وهداية، جعلهم يزودون عن الإسلام ورسوله بكل ما يملكون من مال، بل بأنفسهم وبأولادهم.

فما نظرة المستشرقين وما سار في دربهم إلا نظرة سطحية، تتوخى أي طعن، وتثير أية شبهة، ومنهجهم في هذا دال على مدى خبلهم، هم يطلقون الفرية، وتكون قناعة لهم، ومن ثم ينقبون في كتب السيرة والتاريخ على أي خبر يؤيدها، دون تمحيص أو نقاش أو فهم.

إن النبوة ليست اجتهادا بشريا يصيب به المرء ما يطمح إليه من آمال في الدنيا، على نحو ما يفعل القادة العسكريون والملوك، ولا هي موهبة خاصة يمكن أن تعود على صاحبها بالنفع، إذا أبدع من خلالها، وإنما هي عطاء إلهي، يوهبها الله من يشاء من عباده. وهذا لم تدركه عقول المستشرقين، فأرادوا نزعها عن الرسول (ﷺ)، وتثبيتها لأنبياء بني إسرائيل، وللمسيح وموسى وعيسى، وكل هذا يسير في نسق واحد، رأيناه منذ الشبهة الأولى، وهي نزع النبوة، والغطاء الإلهي عن دعوة الرسول، فكان لابد من وضع أسباب أخرى دنيوية المنزع، ومنها الرغبة في الزعامة، والسعي إلى الملك والقيادة، وبعبارة أخرى: هم افترضوا كل شيء دنيوي نفعي عن الرسول، وساقوا له كل حجة وسبب، إلا فرضية واحدة، ألا وهو أن يكون نبيا مرسلا.

الشبهة الخامسة: المنهجيات العلمية المزعومة:

تباهى المستشرقون في العصر الحديث بأنهم اعتمدوا منهجيات علمية في قراءتهم للسيرة النبوية، وهذا من أبواب التدليس الذي انخدع به كثيرون من أبناء المسلمين، خاصة فئات من العلمانيين العرب، الذين

[66]) المرجع السابق، ج2، ص28، 29.

استندوا إلى مصطلحات غربية، راحوا يلوكونها في دراساتهم وبحوثهم، ونكتشف في النهاية أن نتائجها لا تنأى كثيرا عن رؤى الاستشراق، إن لم تتطابق مع الرؤية الغربية عامة، وكأن المناهج العلمية تأتي عند الإسلام وعند رسوله فتصاب بالكساح وعمى البصيرة، لتكون المحصلة أنها لم تضف جديدا عن صورة الرسول المتوارثة منذ قرون، بل أثبتت تلك الصورة أكثر.

وكما يذكر بن سالم حميش عن دعوات العلموية التي اكتسحت أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع صعود المد الاستعماري، وظهور المسألة الشرقية (العثمانية) في السياسة الغربية. ومفهوم العلموية أنه وسيلة العقل للوصول إلى الحقيقة، ومعارضة الفكر الغيبي، فالتفكير العلمي والحماس الوضعاني (الموضوعي) يقدم أفكارا أشبه بعلم الفيزياء وقوانينها، أي حقائق مبنية على أدلة علمية، لا مجال فيها للتحيز ولا الشك. فالعلم تحول إلى مطلق، وأضحى الإيمان به حقيقة يقينية، وقد ذهب فلاسفة هذه النزعة مثل أوجست كونت، ورينان، إلى إثبات حالة التفاوت بين الأجناس والأعراق، فقال رينان إن الرجل الأبيض (الجنس الآري) جنسا متفوقا عرقيا وعقليا، أما الساميون (الجنس السامي) فهم تركيب متدن للطبيعة الإنسانية، وأنه مفتقد إلى التنوع والثراء والفيض الزاخر في الحياة، فالأمم السامية مثل الخلائق قليلة الخصب، التي لا تحصل بعد طفولة متأنقة إلى على رجولة سيئة، فهي تبلغ منتهى تفتحها في بداية عمرها، ولا يعود لها دور في طور نضجها.

ويعلق حميش على هذا الرأي، وغيره من الآراء التي كانت عليها الذهنية الاستشراقية في القرن التاسع عشر؛ بأنها خيار قائم على فكرة مسبقة لا أساس لها من العلم، لتكون النتيجة أن العرب تعمهم جميع الأحكام السامية عن جنسهم وثقافتهم ودينهم، فالمسلم هو هذا الكائن الذي يحيط بعقله وقلبه وإدراكاته سياج حديدي من الغباوة والكبرياء، وأن الإسلام نفسه كان مضرا للعقل، بل قتل العلم نفسه، وكذلك الأجناس التترية والبربرية. ويضيف حميش بأن مثل هذه الذهنية التي تنظر إلى وجود أجناس مبدعة وأخرى خاملة، تجعل العرب من الصنف الثاني، وأن العلوم التي نشأت في الحضارة الإسلامية قام بها العجم لا العرب، وأنهم قاموا بذلك بحكم جنسهم المتوارث، وليس السبب هو الإسلام بوصفه دينا، لأنه يعيق التقدم ويمنع التفكير([67]).

وقد يجادل البعض بأن رؤية الأجناس سقطت علميا، وتم الرد عليها في الغرب قبل الشرق، فلا معنى لجنس يحتكر الذكاء والنبوغ والعبقرية، وأجناس أخرى محكوم عليها بالغباء والخمول، فهي دعوة في الأساس تنسجم مع الشعارات الاستعمارية التي أعلت من جنس الرجل الأبيض، وجعلته سيد الكون، وأن المركزية

[67]) العرب والإسلام في مرايا الاستشراق، بن سالم حمّيش، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2010، ص84، 86.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

الأوروبية هي المرجع والحكم والمقياس لشعوب الأرض قاطبة. وهذا بالفعل سقط على المستوى النظري والمنهجي، ولكنه ظل قناعات راسخة في نظرة الغرب إلى الشرق، وتلك هي المعضلة الأساسية، فإذا كان الغرب صنع مناهج بحثية متعددة، وادّعى علميتها، وروّج لها، فإنها لم تغير شيئا من صورة الشرق عند الغرب، بل إن الاستشراق بمختلف مراحله هو أداة في يد الاستعمار بمختلف أقنعته وأشكاله من أجل مواصلة الهيمنة على شعوب الشرق، ونهب خيراتها. وهو ما أكده بن سالم حميش في موضع آخر من كتابه، بأن الاستشراق الجديد يظل حاملا لتركة الماضي، لأن البواعث لم تتغير، لأنها مرتبطة بالهيمنة الغربية المستمرة على الشرق([68]). وهو ما يفصله الوهيبي بأن النظرة إلى الشرق المسلم، وإلى كل رموزه لا تزال مسيطرة على كل وسائل الإعلام والثقافة وحركة الفكر الغربي، بل إنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بأجهزة الاستخبارات، وتروّج لها مراكز بحثية عديدة، فيما يسمى بمراكز التفكير في الغرب وأمريكا، والتي تشكل حكومة ظل خفية تعضد صناعة القرار السياسي والعسكري والاقتصادي، وتوفر الخلفية المعرفية والاستراتيجية عن الشرق، وتدعم في المقابل ترسيخ الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين وأيضا رسول الإسلام في الوجدان الغربي والأمريكي عامة، وهذا ثابت في مئات الكتب والبحوث التي تناولت الصورة النمطية للإسلام ورموزه في الغرب وأمريكا، فما نقرره هنا أمر مسلَّم به([69]).

في ضوء ما تقدم، نتناول قضية المنهجية العلمية وعلاقتها بصورة الرسول، من خلال بعض الأمثلة للبرهنة والتدليل، وليس للحصر والتفصيل، ونعني بها حالة نزول الوحي على الرسول، والتي حار فيها المستشرقون وهم يُعملون عقولهم بالمنطق الدنيوي، الذي يبحث عن العلة المادية أو الجسدية أو المرضية، ولا يقبل بأي حال أن هذا الوحي هو جبريل (عليه السلام) مثل الذي جاء لموسى وعيسى.

ونعرض في ذلك ما ذكره عبد الرحمن بدوي في كتابه عن محمد (ﷺ)، متتبعا المنهجيات العلمية المزعومة في تحليل شخصية الرسول (ﷺ) فمثلا يستند المستشرق شبرنجر (1813- 1890) إلى منهجية نفسية تسمى الهستيريا العصبية، لتفسير الوحي الذي كان يتنزل على الرسول، وما يعتوره من انتفاضة في الجسد، وتصبب وجهه عرقا، وإحساسا بالبرد، على الرغم من إقرار شبرنجر أن هذا المنهج يلازم النساء فقط، كما تشير الدراسات النفسية، ولكن المستشرق يقرر أنه يصيب الرجال في حالات نادرة. ويربط شبرنجر بين ما كان يصيب محمدا، وأحوال الطقس والمناخ في الجزيرة العربية، حيث الحرارة العالية، وأنها عند محمد كانت

---

[68]) المرجع السابق، ص271.

[69]) انظر: حول الاستشراق الجديد: مقدمات أولية، عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، منشورات مجلة البيان(مركز البحوث والدراسات)، الرياض، ط1، 1435هـ، ص125 – 144.

تأخذ شكل الحمّى، فيشعر بقشعريرة وتتساقط قطرات العرق معلنة نهاية الأزمة/ الوحي. وتصل الخسة مع شبرنجر باتهام النبي (ﷺ) بالشبق الجنسي، لأن المصابين بهذا المرض يعانون من إفراط جنسي، ومن ثم يعمد إلى تفسير وضيع عن حياة الرسول الزوجية.

وقد اتبع بدوي نهجا جيدا في نقده، حيث أورد آراء عدد من المستشرقين الذين ردوا على شبرنجر، وأبرزهم المستشرق السويدي تور أندريا 1885- 1947)، الذذي يفند فيها آراء شبرنجر، ويذكر أن روايات الوحي صحيحة، وأنها تتسق عادة مع الملهمين، ولكنها لا تقبل في دائرة المصاب بالصرع، وإنما هي ليّ عنق النصوص وتحميلها ما لا تحتمل، بتفسير سطحي، وخطاب يشابه خطاب البيزنطيين المهاجمين للرسول قديما. ويوافقه المستشرق الدنماركي فرانتس بول (1850- 1932)، مستعينا بآيات القرآن وأحاديث الرسول، مؤكدا أن محمدا ظل على هذه الحالة طيلة حياته، وربما تسمى هلوسة سمعية مدعيا أن محمدا كان أقرب إلى الصوفية، الغارق في التقوى، ولذا كان الوحي لديه أقرب إلى السمعي، واعتقد (ظن) أن الصوت الذي يأتيه هو صوت جبريل، ويذكر أيضا أن القرآن أكد على حماية الوحي، وأن أنه ليس بمجنون، ولا ساحر ولا كذاب. ويرد بدوي على هذه الاتهامات بأن المصاب بالصرع أو الهستيريا شخصا غير سوي، متقلبا نفسيا، ذاكرا أعراض مفصلة عن المرضى النفسيين بهذه الأمراض، وكلها لا تنطبق على محمد الذي كان يعيش حياته العادية، إنسانا راقيا واعيا داعيا هاديا([70]).

فجاء رد بدوي مستعينا بمقولات مستشرقين آخرين، فنّدوا هذا الرأي، ولكنهم –من خلال ما ذكروه –لم يؤمنوا بنبوة محمد– وإنما كان ردهم في إطار النصوص العربية للسيرة النبوية والأحاديث والقرآن الكريم، فحالهم أشبه بالنقد النصي، والرد على الادعاء بالدليل. أما رد بدوي فكان رائعا، لأنه لم يرد بالقطعة على نحو ما فعل الآخرون، وإنما استعرض سمات شخصيات المرضي النفسيين بالصرع والهستيريا بشكل عام، ليصل إلى أنها لا تتفق مع سمات محمد تاريخيا. وبذلك كان النهج جيدا، دون تشنج فكري، فقد حاجج المنهج بالمنهج، والدليل بالدليل، برؤية أكثر شمولا ورحابة، وهو ما نريده عندما نجادل آراء الاستشراق والعلمانية العربية.

وإذا ذهبنا إلى موسوعة بيان الإسلام، نجد ردودا إضافية، حيث يردون على بعض المستشرقين الذين زعموا أن محمدا كان يمثّل حركات بعينها إيهاما منه بنزول الوحي عليه، من أجل السيطرة على أتباعه، وجذبهم، وإضفاء هالة قدسية على دعوته، عبر حركات تشابه حركات المجذوبين والمشعوذين، سعيا من المستشرقين من أجل إثبات بشرية الإسلام والقرآن، وأن الرسول مجرد دجال مشعوذ.

[70]) دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، ص58- 68.

والرد على ذلك لابد من التأكيد على أمرين: أولهما: أن الوحي المحمدي كان حدثا طارئا وليس دائما، فلا يمكن إحضاره، ولا دفعه، ولا اصطناعه. وثانيهما: إن ما يحدث للنبي خلال تلقيه الوحي من أعراض جسدية، عائد إلى ثقل الوحي بشهادة القرآن ذاته في قوله تعالى ﴿إنّا سَنُلقي عليكَ قولاً ثقيلا﴾، (المزمل،5).

أما الرد العقلاني على مثل هذه الفرية، بدون النظر إلى خسف التحليلات النفسية، فإن محمدا لم يكن بحاجة إلى الاصطناع والتدليس، فدعوته تتفق مع فطرة الخير الإنسانية، وتنادي بكل فضيلة، ومعه معجزات تترى من القرآن وتصدق في واقع الحياة، ومعلوم أنه ملقب بالصادق الأمين، قبل الإسلام، فلا مجال لكذبه، خاصة أن آيات القرآن كلها تدعو إلى الوحدانية الصافية، وإلى العلم والتفكر.

كما أن التأمل في أعراض نزول الوحي؛ يجعلنا ندرك أن الأمر لم يكن بيد الرسول، وإنما هو يتفاجأ به في أي وقت، والدليل أنه كان خائفا في المرة الأولى عندما نزل عليه جبريل (عليه السلام)، ولما عاد كان يقول لزوجته "زملوني زملوني"، بما يعني أنه لم يصطنعه أو يستجلبه. وهناك فترات انقطع فيها الوحي، على الرغم من ترقب الرسول له، كما في حادثة الإفك. على صعيد آخر، فإن الإيمان بالوحي كحقيقة، أمر أساسي وعقدي في الإسلام، حيث يترتب عليه بناء الإسلام كله: القرآن، والعقيدة، والأخلاق، والتشريعات، وقبل ذلك الإيمان بنبوة الرسول(ﷺ)، ولذا حرص المستشرقون والمغرضون قديما وحديثا على الطعن فيها([71]).

وهنا يسقط ادعاء آخر، ردده المستشرقون، وقد ذكرناه سابقا، بأن دعوة محمد تشبه دعوة الصوفية، الزاهدين في الحياة، والذين يعشقون الخلوة مع النفس في الغار والصحراء، وما اعتراه نتيجة لهذه المبالغة الروحية. وهي دعوة خبيثة، لأنها تجعل محمدا ودعوته أشبه بحياة البراهمة الغارقين في الزهد، أو بالمشعوذين والدجالين، الذين يهلوسون بعبارات غير مفهومة، أو بالسحرة الذين تنتابهم حالات مرضية –كما يزعمون– وهم يتصلون بالجن، وكلها تصب في خانة واحدة، نفي النبوة، ونفي الوحي، والتأكيد على بشرية الرسالة، والطعن في الرسول.

ونقول –ختاما– إن الردود المفندة كثيرة، ولكن القضية ليست في الردود، لأن المشكلة في المستشرقين الغربيين –كما يقول فؤاد زكريا– أنهم يدرسون الإسلام بمنطق استعلائي، قادم من مجتمع متقدم لدراسة مجتمع متخلف، فهو أشبه بالوصاية الأبوية، ويظنون أنهم يتعطفون على الشرق عندما يدرسون دينه أو

[71]) موسوعة بيان الإسلام، مرجع سابق، مج 2، ج4،ص72- 76.

ثقافته، وعلى الشرقيين (المسلمين) أن يشعروا بالتيه، عندما تفضّل هذا الغربي بدراسة تاريخهم أو دينهم، فقد رأى ما لا يرون، وبذل من الجهد في تعليمهم وتوجيههم وإرشادهم([72]).

[72]) نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة: دراسة في المنهج، د. فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017، ص53.

خاتمة الفصل: يمكن أن نصل في ختام هذا الفصل إلى جملة نتائج:

أولها: إن الشبهة الأساسية لدى المستشرقين الغربيين قديما وحديثا تتمثل في نفي النبوة عن الرسول، وأن لا أساس إلهيا للقرآن الكريم وإنما هو منتج بشري، ونستطيع من خلال ذلك فهم بقية الشبهات التي تفرعت عنها، ولا فائدة في رأينا من أية مناقشة لفرعية، ما دام الأساس ينفي النبوة جملة وتفصيلا، ويجعل الإسلام نسخة مسروقة ومشوهة من المسيحية واليهودية، وأيضا من تقاليد العرب في الجاهلية.

ثانيها: إن هذه الصورة النمطية عن الرسول هي قديمة وجديدة ومتجددة، وإذا كان هناك غربيون منصفون، فإن هناك أضعافا مضاعفة تؤمن بالقناعات المتوارثة، تدعمها مخيلة جمعية تاريخية، والأهم ارتباطها بمراكز الأبحاث والتفكير والقرار غربيا، وكلها تخدم خطط الهيمنة الاستعمارية بأقنعتها القديمة والجديدة والمتجددة.

ثالثها: إن العقلية الاستشراقية الباحثة في شخصية الرسول وتاريخه وسيرته عقلية جامدة القناعات وأن تظاهرت بالموضوعية، دوجماطيقية وإن ادعت المنهجية العلمية، ويظهر هذا واضحا جليا في تعاملهم مع نصوص السيرة النبوية، والخلط الشاسع في المعلومات، وعدم فهم النصوص على وجهها الصحيح، والبحث عما يثبت القناعة وإن كان الدليل مشكوكا فيه، مع تضخيمه، والأهم عدم الاعتداد بأي ردود من قبل المسلمين والمنصفين المتصدين لتفنيد كتابات المستشرقين.

رابعا: إن المستشرقين تعاملوا مع الإسلام عامة، ومع الرسول خاصة بما يمكن تسميته "عقلية الحافة" التي لم تفهم منظومة الإسلام الكلية والجزئية على مستويات: العقيدة والأخلاق والتشريع والقيم، وأيضا حركة التاريخ الإسلامي، وتفاعل العرب ، ولم تعِ آيات القرآن الكريم، ولا إعجازها لأنهم غير مقتنعين بأن القرآن إلهي المصدر، ولا واعين بالعربية تذوقا وفهما، ولغة وأسلوبا، وبنية وتراكيبا. وتلك هي المعضلة الأساسية، التي تمنع توصلهم إلى فهم حقيقي للإسلام ولشخصية الرسول.

خامسا: جاء جهدنا في هذه الدراسة منصبا على فهم السياقات العامة والخاصة التي أنتجت صورة الرسول في المتخيل الغربي، على قناعة من الباحث أنها هناك نسقا عاما أنتج مثل هذه الصورة، وراكمها قرونا، وأعاد إنتاجها مرات ومرات، وفي كل مرة تأتي النتائج متشابهة، بل ترسّخ المترسخ، وتعمق المتداول، وتغذي المتوارث.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب:

-الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1987.

-الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986.

- الإسلام والغرب: دراسة في قضايا الفكر المعاصر، محمد الخير عبد القادر، دار الجيل، بيروت، والدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط1، 1991.

-الإسلاموفوبيا: الحملة الإيديولوجية ضد المسلمين، ستيفن شيهي، ترجمة: د. فاطمة نصر، إصدارات سطور الجديدة، القاهرة، ط1، 2012.

-الإسلام والمسيحية، أليسكي جورافيسكي، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، مراجعة د. محمود حمدي زقزوق، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1996.

-الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، داريوش شايغان، ترجمة: حيدر نجف، دار الهادي، بيروت، ط1، 2007.

-الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006.

-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، 1997.

-التحيز في الأنظمة الغربية لتصنيف المكتبات، د. هاني محيي الدين عطية، في الكتاب الجماعي: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط2، 1418هـ، 1997م.

- التحيز في الكتابة التاريخية، طارق البشري، في الكتاب الجماعي: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط2، 1418هـ، 1997م.

-تراث الإسلام، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة: محمد زهير السمهوري وآخرانِ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط3، 1998.

- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة، الرياض، 1422هـ / 2002م.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

-تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، منشورات وزارة الثقافة والتراث الوطني، البحرين، ط1، 2004.

- ثورة الإسلام، وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله، محمد لطفي جمعة، دار عالم الكتب للنشر، القاهرة، 1423هـ، 2002م.

-حفريات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1987.

-دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره، د. عبد الرحمن بدوي، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر والتوزيع، 1999.

-دوافع الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي، د. عدي سالم الجبوري، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2011.

-رسائل جاك دي فيتري: دراسة وثائقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، 1200- 1240م، ترجمة: د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2005.

- السياسة الدينية والدول العلمانية: مصر والهند والولايات المتحدة الأمريكية، سكوت هيبارد، ترجمة: الأمير سامح كريّم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2014.

السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1396هـ، 1976م.

-السيميائيات الواصفة: المنطق السيميائي وجبر العلامات، د. أحمد يوسف، منشورات الاختلاف-الجزائر، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2005.

-عظماء أسلموا، راغب السرجاني، مؤسسة أقلام للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.

-الفتوحات الإسلامية، د. صالح أحمد العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2004.

-مدخل إلى نظرية الأنساق، نيكولاس لوتمان، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ألمانيا-بغداد، 2010.

-المعرفة التاريخية للغرب: مقاربات علمية وفلسفية وأدبية، قيس ماضي فِرّو، المركز العربي للسياسيات، الدوحة، قطر، ط1، 2013.

- مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم، علي بن إبراهيم النملة، بيسان للنشر والإعلام، بيروت، ط2، 1432هـ، 2011.

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

-المنطق أو فن توجيه الفكر، أنطوان أرنولد، بيير نيكول، ترجمة: عبد القادر قنيني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2007.

-موسوعة بيان الإسلام: الرد على الافتراءات والشبهات، مجموعة مؤلفين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 2012.

- موسوعة المستشرقين، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، 1964.

-نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة: دراسة في المنهج، د. فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017.

-النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الثقافية، أرثر أيزابرجر، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.

-نظرية الأنساق المتعددة: نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة، د. جميل حمداوي، منشورات شبكة الألوكة الإسلامية، الرياض، 2006.

- النموذج العلمي بين الخيال والواقع: بحث في منطق التفكير العلمي، د. صلاح عثمان، منشأة المعارف للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2001.

ثانيا: المجلات والدوريات:

- سيرة الرسول في تصورات الغربيين، للمستشرق الألماني جوستاف بفانموللر، ترجمة: محمود حمدي زقزوق، مجلة مركز البحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، مج2، ع2، 1987.

المؤلف

د. مصطفى عطية جمعة جودة

أستاذ م. الأدب العربي والنقد، وباحث في الإسلاميات والفكر والحضارة.

مواليد محافظة الفيوم، جمهورية مصر العربية.

صدر له:

أولا: في مجال الإسلاميات والحضارة:

1) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، دار الفاروق للنشر ، القاهرة ، 2008م .

2) الرحمة المهداة ، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص) ، إسلاميات ، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، 2011 م.

3) الحوار في السيرة النبوية ، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2015م

4) الإسلام والتنمية المستدامة ، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة ، 2016م

5) منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إدارة الأزمات ، إسلاميات ، دار شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ، 2018م .

6) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، 2020.

7) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، 2020

8) صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، منصة أريد البحثية الدولية، 2021.

ثانيا: الدراسات الأدبية والنقدية :

9) دلالة الزمن في السرد الروائي ، نقد ، جائزة النقد الأدبي ، الشارقة ، 2001

10) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري ، نقد ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، 2006.

11) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات ، الوطن ، الهوية) ، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن ، 2010 .

12) اللحمة والسداة ، نقد أدبي ، سندباد للنشر ، القاهرة ، 2010

13) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة ، نقد أدبي ، دار شمس، القاهرة، 2016 .

14) الظلال والأصداء، نقد أدبي ، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2015م

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

15) الوعي والسرد ، دار النسيم للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2016م .

16) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية) ، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2017م .

17) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، جائزة الطيب صالح العالمية ، الخرطوم ، 2017م .

18) عضو فريق التأليف في كتاب : التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه : تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية ، جائزة كتارا للرواية العربية ، العام 2019م .

19) التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك : تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق ، سورية، إبريل 2019م، الصفحات (45-112).

20) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019م.

21) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019م.

22) شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019م.

23) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، 2020

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

24) وجوه للحياة ، مجموعة قصصية ، سلسلة نصوص 90 ، القاهرة ، 1997م

25) نثيرات الذاكرة ، الجائزة الأولى في الرواية ، دار سعاد الصباح ، القاهرة / الكويت ، 1999م.

26) شرنقة الحلم الأصفر ، رواية ، الجائزة الثانية في الرواية في مسابقة نادي القصة، بالقاهرة ، 2002 ، نشر : مركز الحضارة العربية ،2003م .

27) طفح القيح ، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، 2005م .

28) أمطار رمادية ، مسرحية ، مركز الحضارة العربية بالقاهرة ، 2007م .

29) نتوءات قوس قزح ، رواية ، سندباد للنشر ، القاهرة ، 2010 .

30) مقيم شعائر النظام ، مسرحيات ، دار الأدهم للنشر ، القاهرة ، 2012م .

31) قطر الندى ، مجموعة قصصية ، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2013م .

32) على متن محطة فضائية ، رواية للأطفال ، جائزة مكتب التربية لدول الخليج العربي لكتب الأطفال، الرياض ، 2012م .

ملتقى العلماء
لنصرة
خاتم الأنبياء

33) سفينة العطش ، مسرحية للأطفال ، جائزة مكتب التربية لدول الخليج العربي لكتب الأطفال، الرياض ، 2012م .

34) رواد فضاء الغد ، قصص أطفال ، منتدى الأدب الإسلامي ، الكويت ، 2014م .

35) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال ، منتدى الأدب الإسلامي ، الكويت ، 2014م .

36) سوق الكلام ، مسرحيات ، دار النسيم للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2017م .

جوائز دولية :

-الجائزة الأولى عن كتاب "صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد" في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية، ديسمبر 2020.

- الجائزة الأولى في مسابقة مؤسسة الأصالة للدراسات الإسلامية ، الجزائر ، مارس 2019م ، عن كتاب : الفكر الإسلامي المعاصر: استراتيجيات التجديد والخطاب والمستجدات.

- جائزة مسابقة الألوكة الدولية في البحوث الإسلامية والفكرية(الثالثة)، الرياض ، 2017م. عن بحث وسطية الإسلام وقضايا الفكر والحياة.

- جائزة الاستحقاق ضمن جوائز ناجي نعمان الأدبية، عن بحث " ما بعد الحداثة في السينما العالمية "، بيروت ، 2017م .

- جائزة الطيب صـــالح في النقد الأدبي ، العام 2017م ،(الثانية) عن كتاب " القرن المحلّق: الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار.

- جائزة مركز جيل للدراســـات والبحوث عن بحث : النقد العربي والنقد الغربي (نهج التلقي والتفاعل والتقييم) ، 2015 م .

- الجائزة الثانية عن مختبر السرديات بالإسكندرية (2011) ، عن بحث " اختراق الوعي في سرد محمد حافظ رجب.

- جائزة النقد الأدبي لاتحاد كتاب مصر، عن كتاب اللحمة والسداة ، 2011 .

- جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية ، في أدب الطفل ، 2011 م عن رواية " على متن محطة فضائية " ، ومسرحية " سفينة العطش " .

- جائزة المركز الأول في النقد الأدبي ، مسابقة إحسان عبد القدوس ، القاهرة 2009 م .

- جائزة عن كتاب " ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة " ، ضمن المسابقة الدولية للنقد الأدبي ، لمؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، الأردن ، وتم نشر الكتاب .

- الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح ، الكويت ، 1999م.

- جائزة النقد الأدبي ، عن دائرة الثقافة والإعلام بالشـــارقة ، عن كتاب " دلالة الزمن في الســـرد " ، 2000م .

- الجائزة الثانية في الرواية، نادي القصة ، القاهرة ، 2001 . عن رواية " شرنقة الحلم الأصفر " .

- الجائزة الثانية ، لجنة العلوم الســياســية ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصــر ، 1999م ، بحث مصــر والعولمة.

- الجائزة الثالثة ، مركز الخليج للدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة / البحرين ، 2002 ، بحث مؤشرات التطور الديمقراطي في البحرين .

- أربع جوائز عن بحوث فكرية في مســابقة الكويت الدولية الإســلامية للأعوام (1999 – 2004) عن بحوث : الإسلام والعولمة ، النظام الوقفي في الإسلام ، وسطية الإسلام والحضارة الإسلامية: الدين والثقافة والجغرافية والإشعاع الحضاري.

- ثلاث جوائز عن قصص قصيرة في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية للأعوام (1999 – 2004) .

- جائزة مسابقة الشخصيات الخيرية في الكويت ، 2007م ، عن بحث " الشخصية الخيرية في الإسلام : عبد الله المطوع نموذجا " .

للتواصل مع المؤلف:

mostafa_ateia123@yahoo.com
mostafa_ateia1234@hotmail.com
mostafaateia@gmail.com

صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي

أبعاد التجنّي و براهين التفنيد

دراسة في منظور النسق الثقافي والسيمياء والمتخيَّل الجمعي

المستهدف في هذا الكتاب عرض نظرة كلية عن صورة الرسول (ﷺ) في الوجدان الغربي، والتي تعرضت لتشويه كبير، على امتداد قرون، وإلى يومنا، ولكن لا نكتفي بتلك الصورة فقط، وإنما سنسعى إلى تقديم رؤية مثلثة، تشمل الصورة بأبعادها الثلاثة: طبيعة التجني على الرسول (ﷺ)، وتفنيد هذا التجني والرد عليه كي نقدّم تصورا مغايرا من الآخر وهم يشهدون بسمو الرسول والرسالة، مدركين أن محمدا (ﷺ) نبي مرسل، وليس حكيما أو مصلحا اجتماعيا في أحسن الأقوال عند الغربيين، أو هو مدعٍ أخذ رسالته من التوراة والإنجيل، في أسوأ أقوالهم على الإطلاق؛ على نحو ما ذكر الكثير من المستشرقين، وكلا النظرتين أساسها التشويه، والجهل، ولا عزاء للمنهجية العلمية، ولا النظرة الموضوعية، وأمانة الكلمة.

نقول هذا من أجل النأي قليلا عن الروح العدائية المستحكمة، والتي أصبحت قضية قديمة جديدة ومتجددة والتي نشهدها في الهجوم الوقح على رسولنا (ﷺ).

إصدارات منصة أُريد